الجمـــــال

فضله - حقيقته - أقسامه

تأليف
شيخ الاسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني
وتلميذه العلامة ابن قيم الجوزية

دراسة وتحقيق
إبراهيم بن عبدالله الحازمي
عفا الله عنه وسدد خطاه

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ

دار الشريف للنشر والتوزيع

ص.ب ٥٢٤٧٩ ـ تلفون ٤٧٧٩٤٩١

القســم الأول
الدراســة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العـالمين القائل في كتابه الكريم: ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾. [سورة السجدة، الآية: ٧].

والقائل: ﴿**صنع الله الذي أتقن كل شيء**﴾. [سورة النحل، الآية: ٨٨].

والصلاة والسلام على قائد الغر المحجلين، سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، المهداة رحمة للعالمين. الذي وصفه ربه بقوله: ﴿**وإنَّك لعلى خلق عظيم**﴾. فكان أحسن الناس خَلْقًا وخُلُقًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وبعد: فالإحساس بالجمال أمر فطري، أصيل في جبلة الإنسان، فالإعجاب به دائم، والميل إليه طبيعة في النفس، تهفو إليه حيث وجد، وتشتاقه إذا غاب وفقد. إن الجمال عنصر مقصود في هذا الكون، وإن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق، وإن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي. ونظرة في السماء كافية لرؤية هذه الحقيقة وهذه الزينة.

قال الإمـام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النـظر إلى الأنـوار الأزهـار والأطيار المليحـة الألـوان الحسنة النقش، المتناسبة الشكل... ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبًا بالطبع[1].

وقال العلاَّمة ابن القيم رحمه الله في صدر حديثه عن الجمال: «... والقلوب كالمطبوعة على محبته، كما هي مفطورة على استحسانه.

* وكل شيء في هذا الكون الفسيح الجميل الرائع. من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام، ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام، كلها يتجلى فيها الإسحان والإتقان.

---

(١) احياء علوم الدين (٤/٢٩٨).

كل شيء . . . هذه السمكة ، هذا الطائر . . ثم هذا الإنسان . . وهذا الكوكب السيَّار وهذا النجم الثابت وهذه الأفلاك والعوالم كل شيء . . كل شيء حينما امتد البصر متقن الصنع ، بديع التكوين . . يتجلى فيه الإحسان والإتقان[1] .

فكأني بل أخي القاريء تقول : هلاَّ عرفت لنا الجمال فما أحوجنا إليه وإلى تعريفه .

فنقول وبالله التوفيق .

تعريف الجمال والحسن لغة واصطلاحا:

الجمال: مصدر الجميل ، والفعل : جَمُل .

قال ابن سيده : الجمال : الحسن يكون في الفعل والخَلْق .

وقال الرازي في مختار الصحاح[2] : و**(الجمال):** الحُسْن وقد (جَمُل) الرجُل بالضم (جمالًا) فهو (جميل) والمرأة (جميلة) و(جملاء) أيضًا بالفتح والمدّ .

وقال ابن الأثير: والجمال يقع على الصورة والمعان . ومنه حديث : «إن الله جميل يحب الجمال» أي حَسَن الأفعال كامل الأوصاف . الحسن : ضد القبح ونقيضه .

حسنت الشيء : زينته .

والحسنة : ضد الشيئة . والإحسان : ضد الإساءة .

و**﴿أحسن كل شيء خلقه﴾** . يعنى حسَّن . يقول : حسَّن خلق كل شيء .

ويأتي الحُسْن بمعنى الجمال .

* الفرق بين الحُسْن والجمال .

«الحسن في الأصل للصورة ، ثم استعمل في الأفعال والأخلاق» .

---

(١) انظر في ظلال القرآن : تفسير سورة السجدة ـ للأستاذ سيد قطب .

(٢) (ص : ١١١) وانظر لسان العرب لابن منظور، والصحاح للجوهري .

«والجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم استعمل في الصورة».

فالجمال هو: مايشتهر ويرتفع به الإنسان من الأفعال والأخلاق ومن كثرة المال والجسم، وليس هو من الحسن في شيء، ألا ترى أنه يقال لك: في هذا الأمر جمال، ولا يقال لك فيه حسن، وفي القرآن.

﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾.

والقرآن الكريم استعمل لفظ «الجمال» في نطاق ضيق لم يتجاوز ثماني مرات. واحدة منها بصيغة المصدر، والباقي كانت صفة. وكلها في مجال الأخلاق عدا قوله تعالى: **﴿ولكم فيها جمال...﴾**. الآية. يعني الخيل والإبل. أما لفظ «**الحسن**» فقد ورد في القرآن الكريم كثيراً، صيغته المختلفة. وقد استعمل في الصور كما استعمل في المعاني[1].

(١) انظر فيما تقدم الفروق في اللغة لأبي الحسن العسكري ص: ٨٠ ـ ٨١.

الألفاظ الجمالية

استعملت اللغة العربية الكثير من الكلمات للتعبير عن الجمال، بعضها في المجال العام، وبعضها الآخر في مجالات خاصة.

ففي كتاب «فقه اللغة» للثعالبي نجد فصلاً تحت عنوان: **في تقسيم الحسن**.

حدد فيه لكل كلمة مجال استعمالها، فقال: الصباحة في الوجه، الوضاءة في البشرة، والجمال في الأنف، والحلاوة في العينين والملاحة في الفم، والظرف في اللسان، والرشاقة في القد، واللباقة في الشمائل، وكمال الحسن في الشعر ا هـ.

واستعمل القرآن الكريم الكثير من الألفاظ للتعبير عن الجمال ومن ذلك.

الجمال والحسن، والبهجة، والزينة. كما أشار إلى بعض وسائل التجميل كالحلية والريش والزخرف كما استعمل ألفاضًا أخرى للتعبير عن آثار الجمال منها: السرور والعجب ولذة الأعين..

قال تعالى: ﴿.. **إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين**﴾. فالسرور أثر من آثار رؤية الجمال.

وقال تعالى في صدر الحديث عن الجنة: ﴿... **وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين**﴾. ولذة العين أثر من آثار رؤية الجمال.

* والجمال سمة واضحة مقصودة في الصنعة الإلهية، فحيثما اتجهت ببصرك فثمة هناك مايجذبك بلونه الأخّاذ، أو بصنعته المحكمة ودقته المتناهية أو بتناسق أبعاده وتوازنها. أو بتآلف الألوان وتداخلها.

تأمـــلات

تأمل أخي المسلم: في ليلك الهاديء، في صفاء السماء وتلألؤ النجوم، واسبح بفكرك وراء تلك المسافات الشاسعة التي لم تعد تقاس بالأميال بل بالضوء. .

وتـذكَّـر قول الله تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾. [سورة آل عمران، الآية].

* تأمَّـل البحر وسكونه ومافيه من عجائب خلق الله، ثم تأمَّله هائجًا مغوارًا تتلاطم الأمواج فوقه. .

* تأمَّل القمر وقد أطلَّ من علياء سمائه يبدد بنوره ظلمة الليل الحالك. فإذا بالأرض يغمرها ضياء فضي ينساب في كل جنباتها يطغى عليها الحب والحنان. .

* ومـع إشراقـة الشمس حيث تلامس خيوطهـا الذهبية تلك اللآلِيء البراقة اللامعة من الندى، وقد توَّجت أوراق الشجر وبراعم الورد يحكي جمال قصة. . وتلك الفراشة. . وذلك الطائر. . تعانقت فيهم الألوان تعبيرًا عن إتقان الصانع.

* وتلك النبتة وقد تسلقت ذلك الجدار وألقت بنفسها عليه فإذا به وقد اكتسى غلالة سندسية من أوراقها تدفع عنه برد الشتاء.

ما ورد في حسنه الباهر ﷺ(*)

١ ـ عن البراء بن عازب قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خلقًا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير.

٢ ـ وعنه رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ مَرْبُوعًا بَعِيد مابين المنكبين، له شَعَرٌ يَبْلغ شَحْمة أذنيه، رأيته في حُلّةٍ حمراء لم أرَ شيئًا قطُّ أحْسن مِنْهُ.

٣ ـ وعنه رضي الله عنه قال: ما رأيتُ من ذي لمة في حُلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ، له شعر يضربُ منكبيه، بُعيد مابين المنكبين، لم يكن بالقصير ولا بالطويل.

٤ ـ وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان(•)، وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر.

٥ ـ وعن أبي اسحاق السبيعي قال: سأل رجل البراء بن عازب: أكان وجهُ رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤/٦) في المناقب: باب صفة النبي ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٥٦٥/٦) في المناقب: باب صفة النبي ﷺ رقم (٢٣٣٧).

(٣) رواه مسلم رقم (٢٣٣٧) (٩٢).

(٤) رواه الترمذي في الشمائل رقم (٨) وفي السنن رقم (٢٨١٢) وفيه سوار بن الأشعث فيه ضعف. ولكن الحديث صحيح فقد رواه الدارمي وأبو الشيخ ص: ١٠٧ والحاكم (١٨٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي والطبراني في الكبير ١٨٤٢.

(٥) رواه البخاري (٥٦٥/٦) والترمذي في الشمائل والسنن (الجامع) وأحمد (٢٨١/٤).

(•) أي مضيئة مقمرة.

(*) هذا فصل من كتابنا: «الرسول ﷺ كأنك تراه».

٦ ـ وعن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال ـ في حديث التوبة المشهور:
لما سلمت على رسـول الله ﷺ وهو يبرق وجهه وكان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر.

٧ ـ وعن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: دخل النبي ﷺ عليها يومًا مسرورًا وأسارير وجهه تبرق.

٨ ـ وعن أبي اسحاق الهمداني عن امرأة من همدان سماها قالت: حججت مع النبي ﷺ فرأيته على بعير له يطوف بالكعبة بيده محجن، فقلت لها شبهيه، قالت: كالقمر ليلة البدر لم أر قبله ولا بعده مثله.

٩ ـ وعن جابر بن سمرة قال له رجل: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال. لا. بل مثل الشمس والقمر مستديرًا.

١٠ ـ وعن الجُريري، عن أبي الطُفَيْل قال: قُلْتُ له: أرأيْت رسول الله ﷺ؟ قال: نَعمْ. كان أبْيَض، مليح الـوجـه. وفي رواية: أبيض مليحًا مُقَصَّدًا(*).

١١ ـ وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للربيع بنت معوذ: صفي لي رسول الله ﷺ قالت: «يابني لو رأيته رأيت الشمس طالعة». وفي رواية البيهقي «لو رأيته لقلت الشمس طالعة».

---

(٦) رواه البخاري (٦/٥٦٥) وانظر كتابنا «الفرج بعد الشدة والضيقة».

(٧) رواه البخاري (٦/٥٦٥).

(٨) رواه يعقوب بن سفيان الفسوي وإسناده حسن إن شاء الله.

(٩) رواه أحمد والبيهقي في الدلائل وإسناده صحيح.

(١٠) رواه مسلم (٤/١٨٢٠) (٢٣٤٠).

(١١) رواه يعقوب بن سفيان وإسناده لا بأس به إن شاء الله ورواه البيهقي في دلائل النبوة.

(*) أي ليس بجسيم ولا نحيف ولا قصير ولا طويل بل حسن الجسم.

١٢ ـ وعن أم معبد أنها وصفت رسول الله ﷺ فقالت: رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، [و] كان أحْلى الناس وأجمله من بعيد، وأجهر الناس وأحسنه من قريب.

١٣ ـ وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأنورهم لونًا، لم يصفه واصف قط بمعنى صفته إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البـدر، يقول هو أحسن في أعين الناس من القمر، أزهر، يتلألؤ وجهه ﷺ تلألؤ القمر.

---

(١٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/٩، ١٠) وصححه ووافقه الذهبي. ورواه البغوي في شرح السُّنة (١٣/٢٦١) وابن مندة والبيهقي وغيرهم وهو حديث حسن إن شاء الله وسيأتي.

(١٣) رواه أبو نعيم الأصبهاني في الدلائل ص: ٥٦٣، والبيهقي في الدلائل (١/٢٩٨) وابن أبي خيثمة في تاريخه وابن عساكر، وأشار إليه الحافظ في الفتح وسكت عنه. وماسكت عنه فهو حسن وفيه صبيح بن عبدالله أبومحمد الفرغاني. فيه مقال. انظر ميزان الاعتدال (٢/٣٠٧) رقم ٣٨٥٥. وباقي رجاله ثقات. قال الحازمي عفا الله عنه: الحديث لا بأس به له شواهد كثيرة ومتعددة في وصفه ﷺ بذلك.. والله أعلم.

أمور تزيد من الجمال الظاهري والباطني

١ ـ التنظف والتزين.

٢ ـ التسوك بالسواك.

٣ ـ استخدام العطور فقد كان للنبي ﷺ سُكة (قارورة) يتطيب بها.

٤ ـ تسريح الشعر وتنظيفه لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**من كان له شعر فليكرمه**».

٥ ـ التكحل بالإثمد عند النوم فقد قال ﷺ: «**عليكنَّ بالإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر**». حديث صحيح.

٦ ـ صفاء الباطن وصلاح الظاهر.

٧ ـ الصدقة فإنها تزيد في السعادة وهذا أمر مجرب.

٨ ـ الابتعاد عن الحسد فإنه يولد براكين داخلية تبدو آثارها للمتفرسين الصادقين.

٩ ـ الحرص الشديد على الدنيا فإنه يتعب قلبه ويهلك جسده.

١٠ ـ الابتعاد عن الهم والغم فإنها سم قاتل للبدن ـ نسأل الله العافية والسلامة ـ.

١١ ـ الصدق فهو منجاة دنيا وأخرى.

١٢ ـ الإحسان إلى الآخرين وبذل المعروف.

١٣ ـ الجود والكرم.

١٤ ـ محبة المؤمنين والصحابة فمن سبهم صيره الله إلى القبح في آخر عمره.

١٥ ـ الابتعاد عن الغيبة والنميمة.

١٦ ـ المحافظة على أوامر الله وأوامر رسوله.

١٧ ـ محبة الله ومحبة رسوله.

١٨ ـ قراءة القرآن بتدبر.

١٩ ـ صلاح القلب فهو ملك الأعضاء.

٢٠ ـ الإكثار من صلاة الليل. فمن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ـ وهذا أمر مشاهد ومحسوس.

٢١ ـ الزوجة الصالحة تزيد الإنسان بهاء وراحة وهي جنة من جنات الدنيا ـ نسأل الله من فضله ـ.

٢٢ ـ انشراح الصدر.

٢٣ ـ الذكاء والفطنة.

٢٤ ـ الجار الصالح فهو يجعلك مطمئن النفس إليه وإلى أهلك.

٢٥ ـ العافية والسلامة.

٢٦ ـ المركب الحسن فهو من أسباب السعادة ـ والسعادة تعطي النفس طمأنينة وهدوء.

٢٧ ـ الإكثار من التعبد لله. . وطلب الدعاء منه أن يعطيك جمالاً باطنًا وظاهرًا.

الجمال المعنوي: مكارم الأخلاق

أما بالنسبة للجمال المعنوي، فقد جاءت رسالة الإسلام تتم مكارم الأخلاق وتدعو الناس إلى المسابقة في الخير والمسارعة إلى البر، وإلى تحقيق: «التي هي أحسن» لا القنوع بفعل الحسن فحسب، وإثار: «الفضل» لا الوقوف عند حد العدل، والسعي إلى «المندوب». والأحسن والأكمل وتجاوز الواجب والفرض: ﴿**وأن تعفوا أقرب للتقوى ولاتنسوا الفضل بينكم**﴾. [البقرة: ٢٣٧]، . ﴿**وليعفوا وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم**﴾. [النور: ٢٢]. ﴿**فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فاتِّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان**﴾. [البقرة: ١٧٨]، ﴿**فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾. [البقرة: ٢٢٩]، ﴿**وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تَصَدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾. [البقرة: ٢٨٠]. ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾. [النساء: ٨٦]. ﴿**ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه**﴾. [الأنعام: ١٥٢]. ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾. [النحل: ١٢٥]. ﴿**ولاتستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن**﴾. [فصلت: ٣٤].

* * *

التذوق الجمالي

تعني رسالة الإسلام بتربية الذوق الجمالي وتؤكد أن الاستمتاع بالجمال والسعي المقبول سمة الإنسان السوي، المرهف الحس العميق الإدراك، اللماح لروعة الخلق وعظمة الخالق وجليل نعمائه: **﴿قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**. [الأعراف: ٣٢].

والقرآن يوجه النظر إلى: «**الجمال**» في خلق الله إلى جانب «**المنفعة**»: **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا، كذلك الخروج﴾**. [ق: ٦/١١]. **﴿... فأنبتنا به حدائق ذا بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها﴾**. [النمل: ٦٠]، **﴿زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم﴾**. [فصلت: ١٢]، **﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق مالاتعلمون﴾** [النحل: ٦-٨]، **﴿وهو الذي سخَّر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه﴾**. [النحل: ١٤]، **﴿إنَّا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾**. [الكهف: ٧].

وخلق الإنسان نفسه يحقق الفعالية الوظيفية لكن لايغفل عن الجمال: **﴿لقد**

خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾. [التين: ٤]. ﴿**الذي خلقك فسوّاك فعَدَلَك﴾**. [الانفطار: ٧].

والمسلم مأمور باتخاذ الزينة عند الخروج إلى الجماعة: ﴿**يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾**. [الأعراف: ٣١]. وهو مدعو لتجنب مامن شأنه خروج رائحة كريهة من فمه وهو ملتحم مع الجماعة في صفوف الصلاة، مندوب إلى السواك في كل صلاة فضلاً عن الطهارة السابغة الشاملة للجسم والثوب والمكان. وقد أخبر رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام أنه قد حبب إليه الطيب، وفي الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد تطيَّب قبل إحرامه لحجته بأطيب الطيب: «**ورؤي وبيص الطيب في مفارق رأسه**»[1] وروى ابن اسحاق أن عبدالله بن زيد بن ثعلبة حين أخبر رسول الله صلوات عليه برؤياه في شأن الآذان قال له ﷺ: «**إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً**»[2].

ويصور القرآن الجنة في جمال وجلال ينفعل بها أصحاب الحس المرهف ويشيع بين المؤمنين تذوق الجمال: ﴿**وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لاتسمع فيها لاغية. فيها عينٌ جارية. فيها سررٌ مرفوعة. وأكوابٌ موضوعة. ونمارقُ مصفوفة. وزرابي مبثوية﴾**. [الغاشية: ٨ - ١٦]. ويعرض القرآن صورة جمالية رفيعة لنور الله تأخذ بالألباب: ﴿**الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تَمْسَسْهُ نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل**

---

(١) الحديث في الصحيح.

(٢) سيرة ابن هشام: بتحقيق السقا والأبياري وشلبي ط٢ مكتبة مصطفى الحلبي بالقاهرة ـ القسم الأول ص٥٠٨ ـ ٥٠٩.

شيء عليم . في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ . [النور: ٣٥ - ٣٦] . وقد تأتي الصناعة بصور من الجمال الباهر في حياتنا الدنيا تتحدث بنعمة الله وتستخدم في طاعته كما ورد عن صرح سليمان الذي دخلته ملكة سبأ : **﴿فلما رأته حسبته لُجّة وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت نفسي مع سليمان لله رب العالمين﴾**[النمل : ٤٤] .

* * *

الجمال جزاء العمل الصالح

إن واضع المنهج الإلهي هو خالق الإنسان، ولذا كان التناسق كاملاً بين المنهج وبين تلك الفطرة التي فطر الإنسان عليها.

وبما أن للحسن أثره البالغ على النفس، فقد جعله الله بعض الجزاء على العمل الصالح، ونتيجة للاستقامة في هذه الحياة، وبهذا يكون الجمال هو العنصر البارز في الثواب الذي أعده الله لعباده المتقين. وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى ذلك في الكثير الكثير من آياته، حيث جاء التركيز على حاسة البصر أكثر من غيرها. وحاسة البصر هي الوسيلة لاستشعار هذا اللون من النعيم.

ولنستمع إلى بعض هذه الآيات الكريمة:

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[1].

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنَّا لانضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابًا خضرًا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقًا﴾. [2].

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا ولباسهم فيها حرير، وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾[3].

---

(١) سورة التوبة. الآية ٧٢.

(٢) سورة الكهف، الآيتان ٣٠، ٣١.

(٣) سورة الحج، الآيتان ٢٣، ٢٤.

وتنتقل العين عبر هذه المشاهد من جمال إلى جمال.. الجنات التي التفت أشجارها بعضها على بعض، وتلاقت أغصانها.. والماء الجاري منساب رقراق.. والحلية.. تتعانق فيها الألوان من ذهب أصفر إلى لؤلؤ أبيض.. والثياب.. السندس والاستبرق والحرير متناسبة الألوان في خضرتها مع الجو العام.. إنها مشاهد تحار العين على أيِّها تستقر!

وفي مشهد آخر، حيث تقل الكلمات، وتُلغى آفاق المسافات، ويسرح الفكر والنظر.. ويتساوق العموم الذي تعنيه «ما» في قوله تعالى: ﴿**وفيها ماتشتهيه الأنفس**﴾. مع الخلود الذي يعني العموم الزمني.. فإذا جمال النص جزء من جمال الحقيقة..

﴿**ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون**﴾[1].

وتأخذ «لذة الأعين» مكانها، في إشارة خاصة بها من بين كل ماشتهيه الأنفس.. ولذا فالصحاف، لايشار إلا إلى مافيها ولكن يشار إلى مادتها، فهي وحدها المناسبة لذلك الجو من الحبور والسرور حيث يتوفر كل ماتشتهيه الأنفس، وتتمناه وترغبه.

كانت تلك مشاهد إجمالية لذلك الجزاء، أبرزت فيها الخطوط العريضة والمعالم الكبيرة.

ونحب أن نعيش مع واحد من النصوص التي تناولت الأمر بشيء من التفصيل: ﴿... **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقَّاهم نضرة وسروراً. وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا. متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسًا ولازمهريرًا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قواريرا من فضة قدَّروها تقديرًا. ويسقون فيها كأساً**

---

(١) سورة الزخرف الآيتان ٧٠ ـ ٧١.

كان مزاجها زنجبيلاً . عينًا فيها تسمى سلسبيلاً . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً . وإذا رأيت ثم رأيت نعيمًا وملكًا كبيراً . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضةٍ وسقاهم ربهم شرابًا طهوراً . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾[1] .

إنـه مشهـد يشـع الجـمال من كل أرجائه، ويبدو كذلك في كل جزئية من جزئياتـه . وهـو مع ذلك يؤدي دوره في أداء المتاع حقه من الوصف والإيضاح وهكذا يلتقي المتاع والجمال . وهي سمة واضحة في كل نعيم الآخرة .

إن كلمة «الجنة» بمقدار ماتعني من النعيم، فهي ترسم لوحة الجمال الطبيعي حيث تلتفت الأشجار يعانق بعضها بعضًا . فتبدوا أقواسًا منتظمة أو غير منتظمة وكل يؤدي دوره في إتمام اللوحة . . .

وفي «الأرائك» . . إنها ليست مجرد سرر يأخذ الإنسان راحته عليها، بل هي التي أحيطت منها بالستائر والحجال . لا لتغيَّب من فيها عن النظر، وإنما لتؤدي دورها في جمال المنظر . .

و «الظلال» ليست ظلالاً تقي حر الشمس، فهم ﴿**لايرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا**﴾ . ولكنها لأداء الجمالي . وللظلال حيثما وجدت دورها الجمالي الكبير. و «دنو» الظلال يعطي المشهد جمال الحركة وحيويتها .

و «الآنية» ليست مجرد أوعية لتؤدي الغرض فيما أعدت له، ولكنها جمالية من الجماليات، ومازال الناس في دنياهم قديمًا وحديثًا يُعنون بجماليات هذه الأواني، فصلتهم بها يومية . .

إنها من الفضة، والفضة ترسم في المخيلة ذلك اللون الرائع مع لمعان ليس بالشديد، يوحي بالصفاء . . والأكواب من نفس المادة، ولكنها في تركيب آخر يؤدي مهمة الكوب من حيث الاستعمال ويؤدي التناسق مع بقية الآنية من حيث

(١) سورة الإنسان الآيات ١١ ـ ٢٢ .

اللون والمادة. . إنها قدرت تقديرًا محكمًا، حيث رقت ودقت صفحتها، فأصبحت شفافة، فهي في مادتها فضية، وفي شفافيتها زجاجية. . إنه الجمال.

وأما الولدان الذين يؤدون الخدمة فهم اللؤؤ وكفى به وصفًا إلهيًا من الحرير بأنواعه. . السندس والاستبرق في لون ينساب مع اللون العام فلا يحدث النافر في الألوان. . بل التكامل والتناسق. . وكذا الحلي.

وفي قوله تعالى: ﴿**وإذا رأيت ثَمَّ رأيت. .**﴾. تأكيد على أهمية حاسة البصر وأن جزءًا كبيرًا من ذلك النعيم يحصل عن طريقها.

ولاتغفل النصوص الكريمة الجانب النفسي للإنسان، وماله من أثر على طلاقة وجهه وإشراقته، وهو يعيش في ذلك النعيم. فهو الصفحة التي تعكس كل مايحيط بها في بلاغه وإيجار. وقد وردت الإشارة إلى ذلك في آيات كثير منها ماورد في النص السابق: ﴿**ولقاهم نضرة وسرورًا**﴾. ومنها قوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾[1].

إن آثار النعيم بكل أبعاده ـ والجمال يبدو منها جميعًا ـ ستشرق في وجوه أولئك الذين كتب الله لهم الفوز برضوانه، يعرف ذلك ويحس به كل من رآهم.

﴿**إن الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم**﴾[2].

إنها صورة الإنسان الذي يتناسب مع الجو السابق المذكور. . فالوجوه الكالحة المظلمة، لاتصلح له وتسبب تنافرًا في اللوحة الكبرى. .

مما تقدم مدى اهتمام النصوص بعرض الجمال، وماذاك ـ كما قلنا ـ إلا لما له من أثر عميق في النفس، فكان هذا الوصف بيانًا للجزاء من جهة، وإغراء بالعمل الصالح وحثًا عليه من جهة أخرى.

---

(١) سورة القيامة الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة المطففين الآيات ٢٢ ـ ٢٤.

وبهذا نتبين مدى الدقة في المنهج الإسلامي وهو يتعامل مع النفس الإنسانية فهـو يلبي كل حاجـاتهـا من خلال الفـطرة في تغطية شاملة لك متطلباتها من حاجات وأسواق.

من الآثار الجمالية لحضارة الاسلام

من آثار حضارة الإسلام المعروفة إنشاء الحمامات والمغاسل وموارد المياه العامة استجابة لأوامر الإسلام في الطهارة والوضوء والغسل. وكان في الجانب الشرقي من بغداد وحده في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام، وروى الخطيب البغدادي أنه كان في بغداد في عهد المقتدر العباسي ٢٧ ألف حمام وصلت في عهود أخرى إلى ٦٠ ألفًا. ويذكر المقريزي إنه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حمامًا. ويذكر المقريزي إنه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حمامًا. وكان الحمام متعدد الحجرات وقد رصفت أرضه بالفسيفساء وبطنت جدرانه بالرخام، وقد أحاطت حجرات الحمام بقاعة وسطى واسعة تتوجُها قبة تتخللها كوات صغيرة عليها زجاج ينفذ خلاله الضوء، وكانت هذه القاعة تدفأ بالبخار المتصاعد من نافورة ماء في وسط الحوض، وتهيأ حجرات للاسترخاء وتناول المشروبات الدافئة المهدئة.

وقد تجاوب الفن مع تعاليم الإسلام في تحريم تصوير الأحياء أو تجسيمهم، فأبدع الزخارف المتميزة المستمدة من النباتات والأشكال الهندسية والتي عرفت بالزخرفة العربية (arabesque) فضلاً عن إبداع الصور الرائعة من الخط العربي واستخدامه في الزخرفة. كما بهرت الأنظار نقوش المسلمين الزخرفية على الثياب والسجاد والخزف القيشاني (أو الزليج) وتقدمت صناعة الميناء والزجاج وتذهيبه وتلوينه وتطعيم الخزف والنقش على النحاس وبرز ذلك في كنوز الآثار الباقية وما اشتملت عليه من كؤوس وأونٍ للزهور وثريات، وازدهرت صناعة العطور والحلي[1].

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص١٦٢ - ١٦٣، ٢٥٩، ٢٦٤ -٦. حتى: تاريخ العرب ترجمة نافع جـ٢ ص٤٢١ - ٤٢٢، ٤٣٢ - ٤٣٨، ٤٤٢ - ٤٤٣، ٥٢٣٥ - ٥٣٨.

باب من كان يضرب به المثل من الصحابة في الجمال

جرير بن عبدالله البجلي كان كامل الجمال حتى قال فيه عمر هو يوسف هذه الأمة وكان المصطفى يحبه ويكرمه لذلك قاله المناوي في فيض القدير وقول عمر المذكور فيه أخرجه ابن سعد والخرائطي في اعتلال القلوب وقال فيه المصطفى لما ورد عليه سيدخل عليكم من هذا الفخ أو من هذا الباب من خير دي يمن على وجهه مسحة ملك أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم وأخرجه الطبراني عنه قال كان إذا قدمت على رسول الله ﷺ الوفود دعاني فباهاهم بي وأخرج الطبراني في الكبير والحكيم من طريق صابر بن سالم بن حميد بن يزيد بن عبدالله بن ضمرة بن مالك البجلي عن أبيه عن سالم عن أبيه حميد عن أبيه يزيد قال حدثتني أختي أم القضاب عن أبيها عبدالله بن ضمرة أنه كان قاعدًا عند النبي ﷺ فطلع جرير فبسط له رداءه وفي صحيح البخاري وشمائل الترمذي عن جرير قال ماحجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا ضحك قال المناوي ماحجبني منعني من الدخول عليه مع خواصه وخدمه وقال ابن سلطان ولعل وجه التبسم له كل مرة في رؤيته أنه رآه مطهر الجمال فإنه كان له صورة حسنة على وجه الكمال هـ وأخرج الترمذي في الشمائل أيضًا عن جرير قال عرضت بين يدي عمر فألقى جرير رداءه ومشى في إزار فقال خذ رداءك فقال عمر للقوم مارأيت رجلاً أحسن من جرير إلا مابلغنا من صورة يوسف عليه السلام ومن طريق إبراهيم بن إسماعيل الكهيلي قال كان طول جرير ستة أذرع وقال عبدالملك بن عمر رأيت جرير بن عبدالله وكان وجهه شقة قمر وكان نعله ذراعًا فيه هـ أنظر جميعه في حاشية العلقمي على الجامع الصغير على حديث إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ونقل ابن سلطان على الشمائل عن أبي عثمان مولى عمرو بن حريت عن عبدالملك بن عمير قال رأيت

جرير بن عبدالله وكان وجهه شقة قمر وممن كان يضرب به المثل في حسن الصورة دحية الكلبي وكان جبريل ينزل على صورته وروى العجلي في التاريخ عن عوانة بن الحكم قال أجمل الناس من كان جبريل ينزل على صورته وقال ابن عباس وكان دحية إذا قدم المدينة لم تبق مخدرة إلا خرجت تنظر إليه ذكره ابن قتيبة في الغريب وقد سبق عن الفتوحات المكية أنه بلغ من أثر جمال دحية في الخلق أنه لما قدم المدينة واستقبله الناس مارأته امرأة حامل إلا ألقت مافي بطنها وعن العمدة للعيني أن دحية هذا كان يمشي متلثمًا خشية أن تفتتن به النساء.

الجمـال عنصر مقصود

وإذا كان الجمـال هو السمة التي يهمنا الحديث عنها، فلنستمع قول تفسير الظلال في بعض شرحه للآية الكريمة: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾.

قال مؤلفه رحمه الله تعالى: «**اللهـم إن هذا هو الحق الذي تراه الفطرة وتراه العين ويراه القلب ويراه العقل، الحق المتمثل في أشكال الأشياء ووظائفها. وفي طبيعتها منفردة وفي تناسقها مجتمعة، وفي هيئاتها وأحوالها ونشاطها وحركاتها، وفي كل مايتعلق بوصل الحسن والإحسان من قريب أو بعيد**».

«سبحانه... كل شيء مقدر، لايزيد عن حد التناسق الجميل الدقيق ولا ينقص. ولايتقدم عن موعده ولا يتأخر، ولايتجاوز مداه ولايقصر.. كل شيء من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام، ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام. كلها يتجلى فيها الإحسان والإتقان...».

كل شيء هذه السمكة هذا الطائر ثم هذا الإنسان وهذا الكوكب السيار وهذا النجم الثابت وهذه الأفلاك والعوالم كل شيء حيثما امتد البصر متقن الصنع بديع التكوين يتجلىٰ فيه الإحسان والإتقان.

«والعين المفتوحة والحس المتوفر والقلب البصير، ترى الحسن والإحسان في هذا الوجود بتجمعه، وتراه في كل أجزائه وأفراده، والتأمل في خلق الله حيثما اتجه النظر أو القلب أو الذهن، يمنح الإنسان رصيدًا ضخمًا من ذخائر الحسن والجمال ومن إيقاعات التناسق والكمال، تجمع السعادة من أطرافها بأحلى مافي ثمارها من مذاق وتسكبها في القلب البشري، وهو يعيش في هذا المهرجان الإلهي الجميل البديع المتقن. يتملى آيات الإحسان والإتقان في كل مايراه ومايسمعه ومايدركه

في رحلته على هذا الكوكب. ويتصل من وراء أشكال هذا العالم الفانية بالجمال الباقي المنبثق من جمال الصنعة الإلهية الأصيلة».

«إن هذا الوجود جميل، وإن جماله لاينفد، وإن الإنسان ليرتقي في إدراك هذا الجمال والاستمتاع به إلى غير ماحدود، قدر مايريد، وفق مايريده له مبدع الوجود».

إن عنصر الجمال المقصود قصدًا في هذا الوجود

وإذا كانت المشاهدة هي البرهان فيما يُنظر، فإن هنالك من العوالم مالا يقع تحت بصرنا، إما لأن آلية إبصارنا غير معدة لرؤيته أصلاً، وإما لأنه من الدقة بحيث لم تهيأ الوسائل بعد الإمكانية بعد لإمكانية رؤيته. وسواء أكان ماغاب عنا من هذا الصنف أم من ذاك فإن عنصر الجمال أصيل فيه أصاله عنصر الجمال فيما يقع تحت حواسنا.

انظر إلى ذرة من الثلج تحت المجهر، تر بناءً هندسيًا هو الجمال بعينه. إن عيننا المجردة لم تكن قادرة على التعرف على هذا الجمال قبل وجود الوسيلة. ولكن الوسيلة ليست هي التي أوجدت الجمال، إنه موجود قبلها ووجوده في أصل التكوين إن الإنسان ليمتلكه خشوع شديد وهو يسمع قوله تعالى: ﴿**فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون**﴾[1]. إنه جلال القسم ورهبته. والمقسم هو الله تعالى... إن ما نبصر وما لا نبصر كلاهما من صنع الله وإذن فالصنعة واحدة والأسلوب واحد. وهكذا تكون آية القسم هذه تأكيدًا آخر لقوله تعالى: ﴿**كل شيء**» في الآية السابقة.

الجمال في الكون:

﴿**... ذلك عالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم، الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾.

كانت الآية الكريمة موضوع حديثنا ونحن نتكلم عن قاعدة كلية في نظام الخلق، وهي إدخال عنصر الجمال في إنشاء كل شيء، هذه القاعدة التي لايُذكر لها استثناء. والآية إذ تقرر ذلك ـ البيان والإيضاح لحقيقة من حقائق الوجود ـ

(١) سورة الحاقة: ٣٩.

فإنها في الوقت نفسه تلفت النظر إلى أهمية هذا العنصر من بين العناصر الأخرى.

وإن أهميته لتبدو أكثر وأكثر من خلال التأكيد عليه مرات ومرات.

وفي هذه الفقرة نتحدث عن الجمال في الكون. حيث نتناول بعض كبريات الأشياء، التي تستطيع العين إبصارها، وحيث يمكن أن يلمح ذلك الجمال فيها كل إنسان، سواء قلّت ثقافته أم عظمت.. فكل يغرف من ذلك المعين بحسب ما أتيح له من إدراك.

ونقف عند عالم السماء.

هذا العالم الذي كثيرًا ماتحدث القرآن عنه ولفت النظر إليه.

إن من أوليات الجمال ـ وقيل الحديث عن مظاهره ـ أن يكون الشيء خلوًا من العيوب، بعيدًا عن الخلل والتنافر. فإذا سلم من ذلك كانت تلك الخطوة الأولى في تصنيفه الجمالي.

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن السماء، لاينفي الخلل عنها وحسب، وإنما يتحدى الناظرين، أن يكرروا النظر في محاولة لرؤية شيء من ذلك إن وجد؟! ثم زيادة في التحدي يعطي النتيجة سلفًا... ولنستمع إلى الآيات الكريمة:

﴿الذي خلق سبع سموات طباقًا ماترى في خلق الرحمن من تفاوت[1] فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير﴾. [سورة الملك الآية: ٣ ـ ٤].

---

(١) نذكّر معاني الكلمات في الآية الكريمة نقلًا عن تفسير ابن كثير رحمه الله. قال: (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت).. ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولانقص ولاعيب ولا خلل.

(هل ترى من فطور) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والثوري وغيرهم: أي شقوق وعن السدي: أي خروق. وقال قتادة: هل ترى خللًا؟

(خاسئًا) قال ابن عباس: دابلًا. وقال مجاهد وقتادة: صاغرًا.

(وهو حسير) قال ابن عباس: يعني كليل. وقال مجاهد وقتادة والسدي. الحسير: المنقطع من الإعياء.

إن البصر سيرجع بعد رحلته وقد أصابه الإعياء، ولم يجد عيبًا فلا فروج ولا خروق ولا فطور. . وكذلك لاتفاوت فلا خلل ولا تناقض ولا تنافر في خلق الرب سبحانه.

والدعوة إلى النظر ثم تكراره مرة بعد مرة. . ذلك لتأكيد الحقيقة التي لاشك فيها. هذه الحقيقة التي أكدتها مرة أخرى سورة ق: **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾**.

ويستوقفنا في الآية الكريمة قوله تعالى: **﴿ماترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾**. فلم تقل الآية: ماترى في خلقها من تفاوت. إذ الحديث عن السماوات، ولكن الآية تقرر مبدأ عامًا هو سمة لخلق الله تعالى، فليس ذلك خاصًا بالسماء. إن الخلل والتناقض منفي أصلاً عن صنع الله الذي أتقن كل شيء.

وإذا كانت الآيات الكريمة قد نفت عن السماء والخلل والعيب، فذلك في حد ذاته جمال لا يدانيه جمال. إذ هو الإتقان، ولكنها لاتقف عند هذا الحد بل تسير شوطًا آخر لتسجيل عملية التزيين الإلهية فتقول:

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين﴾.

والزينة مقصودة ـ هنا ـ يوحي بها كل مافي الآية الكريمة. يوحي بها الحرف «قد» الذي يعني التحقيق. والتأكيد بـ «اللام» قبله الفعل إلى ضمير المتكلم «نا» الذي هو الله تعالى بقوله «زينا» كما يوحي به نسبه ولقد تكرر هذا التأكيد على قصد تزيين السماء في آيات أخرى منها:

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾.

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجًا وزيناها للناظرين﴾.

إن غاية الزينة هي استمتاع العين برؤيتها، وتنص الآية على ذلك صراحة: **﴿وزيناها للناظرين﴾**.

إن القصد الجمالي لايحتاج إلى إيضاح أو تأكيد أكثر من هذا. ومع ذلك تأتي آيات سورة فصلت لتروي لنا جانبًا من قصة الخلق: ﴿. . **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا ذلك تقدير العزيز العليم**﴾.

الجمال في الانسان:

الإنســـان . . .

ذلك المخلوق الذي سواه الله تعالى بيده، ونفخ فيه من روحه . . . وأسجد له ملائكته . .

إنه عالم من العوالم، وكون من الأكوان . . مازال العلم يبحث في أرجائه المادية فلم يصل إلى غاية ففي كل يوم كشف جديد، ومعلومات جديدة وكلما تقدم العلم في هذا كشفت له جوانب لم يكن يعلمها . . وأما أرجاؤه النفسية فذلك عالم لم يزل العلم على عتبة لم يلج الباب . .

وفي هذه الفقرة، لن نتحدث عن الإنسان تفصيلاً . . وأنى لنا بذلك؟ فهذا يحتاج إلى الكثير الكثير. ولكنا ضمن إطار البحث نقف عند إثبات قصد الجمال في خلق الإنسان . . . وندع الجوانب الأخرى في الحديث عنه إلى أبوابها . . .

إن النظرة السريعة في هذا المخلوق ـ فضلاً عن النظرة الفاحصة ـ لتقرر جمال هذا المخلوق دون تحفظ.

هذا القوام الفريد، هذا التناسق بين الأعضاء، هذه المرونة في حركة كل عضو. . . المرونة والتكيُّف في حركة الأعضاء بعضها مع بعض . . . هذا التناسق في العمل بين العقل والجسد . . . والروح . . . إنها مؤكدات لا تنتهي . . .

والقرآن الكريم يتناول الحديث بشأن جمال الإنسان من أكثر من جانب، وما ذاك إلا للدلالة على أهمية هذا المخلوق وللتنويه بتكريمه.

والمرحلة الأولى التي ينطلق منها الجمال هي التسوية التامة للشيء، فعدم الخلل وعدم النقص هو الحد الأدنى في الجمال. ويلفت القرآن النظر إلى هذا بلغة هادئة توقظ الحس وتحفز المشاعر ﴿**يأأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذي خلقك**

فسواك فعدلك﴾[1]. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي جعلك سويًا مستقيمًا معتدل القامة منتصبًا على أحسن الهيئات والأشكال».

والتسوية: الوصول بالشيء إلى مرحلة الكمال. ومنه قوله تعالى: ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾[2] أي أكملت خلقه. ومنه قوله تعالى: ﴿**الذي خلق فسوى**﴾[3]. قال في صفوة التفاسير: أي خلق المخلوقات جميعها فأتقن خلقها وأبدع صنعها في أجمل الأشكال وأحسن الهيئات.

وإذا كانت هذه التسوية من قِبَل الله فلابد أن تصل إلى الجمال...

على أن القرآن لا يقف عند هذا الحد في تقرير جمال الإنسان بل يصرح بذلك بما لا يدع مجالاً للريب. وهو هنا ـ عند الحديث عن الإنسان ـ لا يكتفي باستعمال لفظ الزينة وما كان في مستواه، كما جرى ذلك إبان الحديث عن جمال السماء... بل يستعمل اللفظ الذي استعمله في القاعدة الكلية[4] «أحسن» ويستعمله في تعبيرين مختلفين:

﴿**خلق السماوات والأرض بالحق* وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير**﴾[5].

﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾[6].

ونقف عند التعبير الأول: ﴿**صوركم فأحسن صوركم**﴾:

ذهب كثير من المفسرين[7] إلى أن الصورة هي الشكل. قال ابن كثير ـ رحمه

---

(١) سورة الانفطار: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة الحجر: ٢٩.

(٣) سورة الأعلى: ٢.

(٤) المقصود بها قوله تعالى: ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾.

(٥) سورة التغابن: ٣.

(٦) سورة التين: ٤.

(٧) ذهب سيد قطب رحمه الله إلى توسيع كلمة صوركم حتى شملت الجانب المعنوي فقال: =

الله ـ: أي: أحسن أشكالكم. وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ: خلقكم في أحسن صورة وقال في تفسير سورة الحشر؛ ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل. خلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلق، جعله علقة ثم مضغة ثم جعلة صورة، وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها. ا. هـ.

نلاحظ من هذا أن الآية تهتم بالشكل الظاهر وهو ما نعبر عنه بالجمال الحسي الذي تكون العين حاسة الإدراك له.

ونلاحظ أيضًا أن الفعل «صوَّر» لم يستعمل في القرآن الكريم إلا في صدد الحديث عن الإنسان، وبأسلوب الخطاب له، من باب المنِّ عليه في هذا الجانب المهم من حياته، في شؤون نفسه وفي تعامله مع ما يحيط به، وهذا مما يؤيد أهمية «الجمال» الذي أحسنه الله في صورة هذا الإنسان ولا أدل على ذلك من تخصيص الله تعالى لهذا الإنسان بأسلوب من الخلق وهو «التصوير»[1].

وأما التعبير الثاني وهو قوله تعالى: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾ فإن آراء المفسرين لم تتفق على مفهوم التقويم في الآية. على الرغم من عدم

= (وصوركم..) تشعر الإنسان بكرامته على الله، وبفضل الله عليه في تحسين صورته: صورته الخلقية وصورته الشعورية» الظلال ص ٣٥٨٥ سورة التغابن.

(١) كل ماورد في القرآن الكريم في مادة «صور» هو: كلمة (المصور) اسمًا من أسمائه تعالى: ﴿**هو الله الخالق الباريء المصور..**﴾. سورة الحشر [٢٤].
وورد خطابًا للإنسان في الآيات التالية كما ألمحت إليه أعلاه.
﴿**الله الذي جعل لكم الأرض قرارًا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم**﴾. غافر ٦٤.
﴿**خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير**﴾. التغابن ٣.
﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم..**﴾ الأعراف ١١.
﴿**هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء**﴾ آل عمران ٦.
﴿**في أي صورة ماشاء ركبك**﴾ الانفطار ٨.
وهكذا لم تستعمل كلمة «التصوير» في حق أي مخلوق آخر في آيات القرآن الكريم.

الاختـلاف في معنـاهـا اللغوي : فالتقويم : التعديل والتثقيف[1]. ولكن هذا التعديل والتثقيف متعلق بظاهر الإنسان أم بباطنه؟

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: ﴿**في أحسن تقويم**﴾ في اعتداله واستواء شبابه كذا قال عامة المفسرين. ا. هـ.

وهكذا يذهب في تفسير الآية الكريمة إلى الحسن الظاهر الذي يتناول قوام الإنسان وشكله الظاهر.

ويؤيده في هذا الاتجاه ابن كثير ـ رحمه الله ـ حيث قال: «وهو أنه تعالى خلقه الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة سويّ الأعضاء حسنها».

وقال مجاهد ـ رحمه الله ـ: «﴿**أحسن تقويم**﴾: أحسن صورة وأبدع خلق»[2].

وذهب آخرون إلى أن حسن التقويم هنا يتعلق بالجانب المعنوي للإنسان: وينقل القرطبي بعض هذه الأقوال:

«وقال أبو بكر بن طاهر: مزينًا بالعقل مؤديًا للأمر مهديًا بالتمييز. . . [وقال] ابن عربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان. فإن الله خلقه حيًا عالمًا، قادرًا مريدًا متكلمًا سميعًا بصيرًا مديرًا حكيمًا، وهذه صفات الرب سبحانه. . .».

وإلى هذا المنحى ذهب سيد قطب رحمه الله حين قال: «﴿**في أحسن تقويم**﴾ فطرة واستعدادًا».

وذهب فريق ثالث من المفسرين إلى الجمع بين الاتجاهين السابقين.

جاء في تفسير الثعالبي: «وحسن التقويم يشمل جميع محاسن الإنسان الظاهرة والباطنة من حسن صورته وانتصاب قامته وكمال عقله وحسن تمييزه».

---

(١) انظر معجم الألفاظ والأعلام القرانية. محمد إسماعيل إبراهيم.

(٢) عن تفسير الطبري.

وإلى هذا الاتجاه ذهب المتأخرون من المفسرين:

جاء في تفسير القاسمي: «في أحسن تعديل خلقًا وشكلاً وصورة ومعنى» وفي صفوة التفاسير: «أي لقد خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل، متصفًا بأجمل وأكمل الصفات، من حسن الصورة وانتصاب القامة وتناسب الأعضاء، مزينًا بالعلم والفهم والعقل والتمييز، والمنطق والأدب».

نلاحظ مما سبق من أقوال المفسرين في الآيتين الكريمتين، أن معنى الحسن والجمال مقصود في خلق هذا الإنسان، في ظاهره وباطنه، وإن كانت الأولى أقرب إلى الحديث عن الظاهر، والثانية يتسع فيها جانب الحديث عن المعنى.

وإذا كان القرآن قد نص على جمال التصوير وجمال الخلق وجمال التقويم فيه فقد كانت التعاليم الواردة في هذا القرآن هي الوسيلة لإنجاز جمال السلوك فيه، وبهذا يصل الإنسان إلى المستوى الكريم المقصود من وجوده حيث يتناسق الجمال فيه بكل معانيه في جانبه الخلقي وجانبه الإرادي[1].

---

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام للأستاذ الشامي ص: ١٤٠ - ١٤٤.

وســائـل جـماليــة:

إن الله تعـالى خلق الكون، والجمال عنصر أصيل في تكوينه، وكذلك كان الأمـر بالنسبـة للإنسـان، فقـد أبـدع الله صورتـه وأحسنها كما أحسن فطرته واستعداداته فجعلها، محبَّةً للجمال ميالةً إليه وحريصة عليه، كما جعلها قابلة مستعدة لتقدير الجمال، وكذلك لإنتاجه.

وإذا كان هذا الاستعداد من صنع الله تعالى، في فطرة الإنسان، فإنه هيأ له من الوسائل ما يجمِّل به حياته الخاصة، وهذه الوسائل من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاؤها والقرآن الكريم يتحدث عن بعضها على سبيل ضرب المثل.

والزينة مطلوبة من هذا الإنسان.

وهو إذ يسعى إلى ذلك فإنما يلبي نداء الفطرة ونداء الدين معًا. . .

ولعل من التكريم للزينة ـ وهي وسيلة التجميل ـ أن ينسبها الله إليه ﴿**زينة الله**﴾ فالإضافة هنا للتشريف أي الزينة التي هي من صنع الله تعالى.

وهذه الزينة معدة ليستفيد منها «عباد الله» بتجميل أنفسهم أو بتجميل بيوتهم وكل ما يتصل بهم.

ولنستمع إلى القرآن الكريم مبيِّنًا موقفه منها منكرًا على الذين وقفوا منها موقفًا سلبيًا:

﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. . .**﴾[1].

وبهذا يتقرر أن الزينة واتخاذ الوسائل لصنع الجمال في هذه الحياة أمر مطلوب ومـرغوب فيه، ويهيىء الله تعالى لنا من الأشياء ما يساعدنا به على إنجاز هذه

---

(١) سورة الأعراف: ٣٢.

المهمة . . . فيسخِّر لنا البحر ـ في جملة ما سخره لنا ـ لنستخرج من الحلية اللازمة لهذه المهمة :

﴿وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا* وتستخرجوا منه حلية تلبسونها . . . ﴾[1].

وهكذا يلفت القرآن النظر إلى إعداد هذه الحلية ويدلنا على أماكن وجودها، مساعدةً منه في إنتاج الجمال .

ولا نريد الحديث هنا عن كل الوسائل، فالذهب والفضة وسيلة وأي وسيلة في عمليات التجميل والزينة . ولكن أنيطت بهما مهمة أخرى، وهي كونهما يؤديان دور النقد في إطار التعامل المالي بين الناس . . .

إنما مقصودنا ذكر الأشياء التي مهمتها الأصيلة هي كونها وسائل جمالية فهي مصادر إشعاع للحسن حيث وجدت . . .

إنها : اللؤلؤ والمرجان والياقوت والرياش . . .

فالله تعالى يمنّ على عباده بهذه الأشياء، قال تعالى : **﴿مرج البحرين يلتقيان* بينهما برزخ لا يبغيان* فبأي آلاء ربكما تكذبان* يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**[2].

---

(١) سورة النحل : ١٤ .

(٢) سورة الرحمن : ١٩ ـ ٢٣ .

«الظاهر والباطن» والجمال

إن الجمال ليس شيئًا قائمًا بذاته، وإنما هو أمر قوامه بغيره، فنحن نستطيع أن نراه أو نحس به في الإنسان، وفي سلوكه... وفي عمله... وفي الأشياء... وبما أنه كذلك فإن تلك القواعد العامة التي ذكرناها قبل قليل تشمله على اعتبارها قواعد عامة في المنهج.

فالجمال لا يكون له وجود حقيقي إلا حينما يكون سمة للظاهر والباطن في آن واحد، ويكون التناسق تامًا بين هذين الركنين.

أما إذا كان سمة للظاهر فحسب، فهو جمال تافه، من خلفه باطن فارغ، ويضع القرآن الكريم بين أيدينا صورة غاية في الدقة لهذه الحالة الكريهة، محذرًا منها، وذلك حيث وصف المنافقين فقال:

﴿**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم* وإن يقولوا تسمع لقولهم* كأنهم خشب مسنده...**﴾[1].

﴿**إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم**﴾ إن أشكالهم حسنة، وهندامهم جميل ورواءهم معجب...

﴿**وإن يقولوا تسمع لقولهم**﴾ وإن يتكلموا تصغِ لقولهم، فهم ذوو فصاحة وذلاقة لسان، يحسنون تنميق الحديث...

ولكن ذلك الظاهر من خلف خواء، خواء في معناهم، وكذلك في معنى كلامهم... فاستحقوا ذلك التشبيه الدقيق... ﴿**كأنهم خشب مسنّدة**﴾ إنها أخشاب جامدة لا حيوية بها بل لا حياة فيها، مسلوبة الإرادة فهي ليست

---

(١) سورة المنافقون: ٤.

مستندة، ولكنها مسنَّدة.

وفي مقام آخر ردَّ الله على قريش حينما تفاخرت بوضعها الاجتماعي، وذلك فيما نقله القرآن من شأنهم إذ قال: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا**. . .﴾[1].

إنهم يفاخرون بمكانتهم الاجتماعية وبأنديتهم الحسنة وبمنازلهم الرفيعة. . إنها مظاهر. . من الزينة والطلاء.

فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثًا ورئيًا**﴾[2]. كثيرة تلك الأمم التي أهلكها الله ودمرها، كانت أكثر متاعًا وأحسن أثاثًا، وأجمل صورة وأبهى منظرًا. . . ومع ذلك لم يغنِ عنهم ذلك شيئًا. . . إن فساد الباطن غلب حسن الظاهر، فكان الهلاك.

فالواجب على الإنسان المسلم أن تكون سريرته خير مع علانيته، وقلبه خير من لسانه. والله المستعان

---

(١) سورة مريم: ٧٣.

(٢) سورة مريم: ٧٤.

المنهج وخاصية «الظاهر والباطن»

قبل الحديث عن «الظاهر والباطن» وأثرهما في الظاهرة الجمالية لابد من بيان مقتضب عنهما باعتبارهما خاصية أصيلة من خصائص المنهج الإسلامي .

نلحظها في المنهج ذاته، كما نلاحظها في معالجته للقضايا التي يتناولها، وقد تناول كل القضايا . . في حياة هذا الإنسان .

والإنسـان له ظاهـر، وهو مايُرى به، ويُميز بواسطته من صورة ولون، وله باطن، وهو مااستقر في داخله من عقيدة وأفكار وقيم .

وعمله ـ الذي يصدر عنه كذلك ـ له ظاهر: وهو مايراه الناس، وله باطن، وهو المعنى أو الباعث أو النية .

والظاهر والباطن سوف يكونان وحدة متكاملة نتيجة لتطبيق المنهج ، فتكون حقيقـة العمل التي تبدو من ظاهره، هي حقيقته الكامنة فيه، ذلك أن المنهج الذي يضبط الظاهر، هو نفسه الذي يضبط الباطن .

وإذا عرفنا أن هذا المنهج يتناول كل قضايا الإنسان في كلياتها وجزئياتها، تبين لنا أن هذه الخاصية أصيلة في المنهج الرباني، وليست مجرد بحث نتناوله في صدد الحديث عن الظاهرة الجمالية .

فالإنسان الذي خلقه الله وصوره، لايكون إنسانًا حقًا، إلا حينما يستقر في نفسه المنهج الذي وضعه الله له، وحينئذٍ تلتقي الصورة الظاهرة مع معناها الحقيق المناسب، أو يلتقي الظاهر الذي هو من صنع الله، مع الباطن الذي تمثَّل منهج الله فإذا الظاهر والباطن وحدة تامة الانسجام . . وعندها تكمل إنسانية الإنسان، صورة ومعنى، ظاهرًا وباطنًا .

الاحساس بالجمال وأثره في النفس

وقد تحدَّث الأئمة من علماء المسلمين عن هذه الفطرية في النفس الإنسانية بكلمات مجملة ولكنها واضحة، وماذاك إلا لأنها مسلَّمات لاتحتاج إلى البراهين والأدلة.

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل... ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبًا بالطبع» [1]

وهكذا فهي عنده مسلَّمة لاأحد ينكرها.. ووجودها لدى الإنسان دلالة على سلامة طبعه وصحة نفسه.

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «... إذ الإنسان مجبول على محبة الحسن وبغض السيء، فالحسن الجميل محبوب مراد، والسيء القبيح مكروه مبغض» [2].

وقد جاء من بعده تلميذه ابن القيم رحمه الله ليؤكد قوله، وذلك في صدد حديثه عن الجمال الظاهر، حيث قال: «... والقلوب كالمطبوعة على محبته، كما هي مفطورة على استحسانه».

إنها آراء صريحة لأئمة أعلام، تؤكد أن الإحساس بالجمال أمر فطري في جبلة الإنسان. وأن استحسانه وحبه كذلك مما طبعت عليه النفوس.

وإذا عدنا ـ بعد هذا إلى زمننا الحاضر، نتعرف آراء العصر الذي نعيشه، لاحظنا قلة الباحثين في هذا الميدان ممن يحملون العقيدة الإسلامية ويعيشون

---

(١) إحياء علوم الدين ٢٩٨/٤. طبعة دار المعرفة بيروت.

(٢) الاستقامة لابن تيمية ٣٦٧/١ تحقيق د. محمد رشاد سالم ط١ ١٤٠٣هـ.

التصور الإسلامي، ومع ذلك فالآراء واضحة جلية.

يرى الأستاذ محمد قطب ـ في صدد حديثه عن القيم العليا ـ أن الإحساس بالجمال أمر فطري، وأن القضية في نظره أضحت مسلمة لاتحتاج إلى دليل، ولذا يكتفى بالكلمات التالية «وهو إحساس فطري، والدلالة واضحة..»[1].

وأما مؤلف «الظلال» رحمه الله فإنه ينتقل بنا نقلةً بعيدة. فهو لايراه فطرة في الإنسان فحسب، بل يراه فطرة الوجود كله قال رحمه الله: «ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة. ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون، وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق، وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي..»[2].

إن هذه الحقيقة ـ فطرية الإحساس بالجمال ـ التي عرفها المسلمون على امتداد عصورهم وكانت نتاجًا طبيعيًا للتصور الإسلامي الشامل، حتى بانت مسلمة من المسلمات لم تكن كذلك لدى غيرهم..

وفي العصر الحديث قليل أولئك الذين توصلوا إليها أو قالوا بها.. فكل أولئك الذين جعلوا من الفنان إنسانًا آخر فوق البشر وغير البشر لم يروا ذلك. وكذلك الذين نادوا باستبعاد الفن والجمال.. لأنهما يعرقلان مسير ثورتهم لم يروا ذلك. وكل الذين قامت فسلفاتهم على العبث.. والتمرد لم يهتموا بذلك..

على أننا لانعدم مفكرين نظروا من خلال فطرتهم لا من خلال الفلسفات التي أحاطت بهم فتوصلوا إلى الحقيقة أو قريبًا منها.

نستطيع أن نلمح هذا من خلال رأي «كانت» وهو يتحدث عن إدراك الجمال حيث يرى «إن إدراك الجمال في الأشياء يعتبر إدراكًا مباشرًا مستقلاً عن تصورنا لما

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية. فصل «القيم العليا».

(٢) في ظلال القرآن. تفسير سورة الصافات الآية ٦.

هو «جميل». وكذلك فنحن لاحاجة بنا إلى برهان للتدليل على جمال الأشياء. وإنما تتبدى في الشيء سمة الجمال التي ندركها فيه دون حاجة إلى تصور نموذج أو مثال للجمال نقيس بمقتضاه جمال الأشياء»[1].

ويرى «رسكن»[2] أن الشعور الجمالي غريزي في الإنسان، أي أنه سابق على التجربة..[3].

ويعبر «الكسيس كاريل» عن هذه الحقيقة بأسلوب آخر فيقول: «إن الإحساس بالجمال موجود في الإنسان البدائي مثلما هو موجود في أكثر الناس تمدينًا...[4]».

وهذا يعني استقرار هذه الحقيقة في فطرة الإنسان بغض النظر عن بيئته وعصره وثقافته..

خلاصة لما سبق نستطيع أن نقول:

إن عمق الرصيد الذي يملكه الجمال في فطرة الإنسان، جعل تأثيره على النفس عظيمًا، الأمر الذي سجله القرآن الكريم، وهو موضوعنا في الفقرة التالية:

أثر الجمال في النفس:

يعرض القرآن الكريم من خلال قصصه تأثير الجمال على النفس الإنسانية، الجمال الذي يبدوا تارة من خلال الزينة.. وتارة من خلال الفن الهندسي المعماري.. وتارة من خلال الإنسان ذاته، صورة ومعنى..

كما يستعرض النفس الموضوعة تحت هذا التأثير في حالاتها المختلفة، فتارة

---

(١) فلسفة الجمال. أبو ريان ص٣٦.

(٢) جون رسكن (١٨١٩ - ١٩٠٠) كاتب انكليزي، وناقد فني واجتماعي، قرن النقد الجمالي بالوعظ الأخلاقي.

(٣) المصدر السابق ص٥١.

(٤) الإنسان ذلك المجهول ص١٥٤.

تكـون نفسًا عادية تمثل نفوس عامة الناس، وتارة تكون نفس واحد من علية القوم. وتارة تكون في صفة الذكورة وتارة في صفة الأنوثة.

وهكذا نكون أمام تنوع في أشكال المؤثرات، وتنوع آخر في النفوس المتلقية لتلك المؤثرات.. وتبقى القضية واحدة. وهي أثر الجمال في النفس الإنسانية، فالجمال هو الجمال، والنفس هي النفس.

ولنقف على نماذج من هذه المشاهد:

* هذا مشهـد تبـدو فيه الزينة والجمال من خلال الثراء والرفاهية والإعجاب بالنفس.. إنه قارون، الذي كان من قوم موسى، والذي أوتي من الكنوز ماإن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، وقد اتخذ من مظاهر الزينة والرياش والزخارف مايتناسب مع هذا الغنى.. ويخرج «ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى حشمه وخدمه..[1]» فإذا الناس من قومه أمام هذا المشهد فريقان:

فريق أخذ المشهد بمجامع قلوبهم، فإذا بآثار ذلك تخرج من أفواههم تمنيًا ورغبةً أن يكونوا مثله، وأن يكون لهم ماله..

وفريق آخر، لم يؤثر فيهم المشهد، لا لأنه غير مؤثر، وإنما لسبب آخر، هو وجود الإيمان الذي يجعل الإنسان لا يقف عند ظواهر الأمور بل ينفذ إلى جوهرها، إن عدم تأثر هذا الفريق يرجع إلى علمه بأن هناك ماهو أعلى قدرًا وأسمى مكانة.. وهو ثواب الله..

فالمشهـد مؤثـر في النفس ولكن وجود الإيمان هو العامل المضاد في النفوس المؤمنة، ولنستمع إلى النص القرآني الكريم الذي قص علينا ذلك:

﴿فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا: ياليت لنا مثل ماأوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم.. وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم ثواب الله

---

(١) تفسير ابن كثير.

خير لمن آمن وعمل صالحًا ولايلقاها إلا الصابرون﴾[1].

إن الجمال من الأشياء التي تحب لذاتها لا لشيء آخر وراءها، فمنفعة الإنسان من الجمال هي متعة نظره أو سمعه أو شمه أو عقله، وليس هناك شيء آخر. وأي شيء أكثر نفعًا من أن تُلبي حاجة من حاجات النفس الفطرية، فرؤية الجمال تلبية لحاجة النفس في هذا الجانب. وإذن فمنفعة الإنسان من الجمال حاصلة في الجمال ذاته.

ويفرق الإمام الغزالي تفريقًا دقيقًا بين لذة الجمال ذاته ولذة المنفعة الحاصلة من ورائه إن وجدت، وهنا يكون الإنسان أمام لذتين.. فيقول:

«إن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة... ولاتظنن أن حب الصور الجميلة لايتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضًا لذيذ، فيجوز أن يكون محبوبًا لذاته، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لاليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية... حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر[2]..».

وواضح من هذا أن للجمال استقلاله الكامل عن المنفعة، إذ منفعته فيه ذاته، وهذا لايعني أن الجمال لا وجود له حيث توجد المنفعة، وإنما المقصود أن له اعتباره الخاص، فقد يلتقي معها تارة ويبتعد عنها أخرى[3]..

مكانة الجمال:

نستطيع التعرف على مكانة الجمال من خلال التعرف على منزلته ضمن

---

(1) سورة القصص: ٧٩ ـ ٨٠.

(2) إحياء علوم الدين ٤/٢٩٨.

(3) الظاهرة الجمالية في الإسلام (مرجع سابق)

اهتمامات الناس، كما نستطيع معرفة ذلك من أوامر الشريعة التي جاءت لحفظ مصالح الخلق ورعايتها، وتضيف هذه الأوامر وترتيبها بحسب أهميتها ومعرفة موقع مايتعلق بالجمال منها وقد كفانا علماء الأصول مؤنة البحث حيث قاموا بعمليات استقرائية استطاعوا بعدها أن يضعوا النقاط على الحروف.

وقد قرر هؤلاء العلماء: أن الشريعة جاءت لحفظ مقاصد بها قوام الخلق وتحقيق مصالحهم. وتنقسم هذه المقاصد إلى ثلاثة أقسام مرتَّبة الأهم فالمهم:

الضروريات.

الحاجيات.

التحسينات.

ويعدُّ كل قسم فيها كالمكمل والمتمم لما سبقه[1].

ونتساءل بالنسبة «للجمال» أين مكانه؟ وإلى أي قسم ينتمي؟.

ولنترك الكلام للإمام الغزالي يحدد لنا ذلك، بأسلوبه البليغ إذ اعتمد على

---

(١) فضل الإمام الشاطبي (المتوفي ٧٩٠هـ) هذا البحث في كتابه «الموافقات» ج٢ ص٣ ومابعدها.
ونلخص الخطوط العريضة بإيجاز:
قال ـ رحمه الله ـ: «تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لاتعدو ثلاثة أقسام، أحدها: أن تكون ضرورية، والثاني: أن تكون حاجية، والثالث: أن تكون تحسينية.
فأما الضرورية: فمعناها أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة.. وفي الأخرى فوت النجاة.
ومجموع الضروريات خمسة هي: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل.
وأما الحاجيات فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة.. وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات.
وأما التحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات... وهي جارية فيما جرت فيه الأوليات من العبادات والعادات والمعاملات..».

الأمثلة باعتبارها أكثر بيانًا من القواعد. فقال:

«ومثال الضروري من الأعضاء: الرأس والقلب الكبد.

ومثال المحتاج إليه: العين واليد والرجل.

ومثال الزينة: استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة.

ومثال الضروري من النعم ـ الخارجة عن بدن الإنسان ـ: الماء والغذاء.

ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفواكه.

ومثال المزايا والزوائد: خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لاتنخرم بعدمها حاجة ولاضرورة[1]».

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٣٠٣.

ماقيل من الشعر والنثر في الجمال وحسن الوجوه

يعتبر الشعر ديوان العرب، وفخر حياتهم، ورمز شجونهم وهو الذي ترتاح له القلوب بعد القرآن والحديث الشريف وتجذل به النفوس، وتُصغي إليه الأسماع، وتشحن به الأذهان، وتحفظ به الآثار وتقيد به الأخبار واللسان هو المخبر عن الفؤاد.

وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره..

فإليك، ما ورد عن العرب في هذا الباب:

* قال الفرزدق: [البحر الكامل].

إن المهالبة الكرام تحملوا دفع المكاره عن ذوي المكروه زانوا قديمهم بحسن دريتهم وكريم أخلاق بحسن وجوه[1].

* وقال عمر بن بي [البحر البسيط].

آل المهلب قوم خَوّلوا شرفًا ... مانالـه عربي لها ولها كادا

لو قيل للمجد جِدْ عنهم وحلّهم ... بما احتكمت من الدنيا لما حادا

إن المكارم أرواح يكون لها ... آل المهلب دون الناس أجسادًا

إن العرانين تلقاها محسدة ... ولا ترى للئام الناس حسادا[2]

* وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة للأنصار:

نحن المهاجرون أوّل الناس إسلامًا، أوسطهم دارًا، وأكرمهم أحسابًا،

---

(١) انظر ديوان الفرزدق وعيون الأخبار ١/٣٤٢ والمهالبة: جمع مهلبي نسبة إلى القائد المهلب بن أبي صفرة وكان من أشجع الناس وهو الذي حمى البصرة من الخوارج.

(٢) انظر الأمالي للقالي ص: ٤١.

أحسنهم وجوهًا، وأمسهم برسول الله ﷺ رحمًا. أسلمنا قبلكم وقُدمنا في القرآن عليكم[1].

* وقال محرز الضبي [من البحر الطويل]:

كأن دنــا نيرًا على قسـماتهـم ... وإن كان قد شفّ الـوجـوه لقـاء
وجـوه لَوْ أن المعتـنفـين[2] سَرَوْا بها ... صد عن الدُّجى حتى يُرى الليل ينْجلي

* وقال أبو الطحان القيني: [البحر الطويل]:

فكـم فيهـم من سيد وابـن سيّد ... وفي بعقـد الخـارجـين نُفـارقُـهْ
يكـاد الغـمام الغـرُيرْغـدُ أن رأى ... وُجُـوه بني لام[3] وينَهْـل بارقُـه

* وقال أيضًا:

فإني من الـقـوم الـذين هُم هُمُ ... إذا مات منهـم سيّدُ قام صاحبـه
كواكِـبُ مجد كلما غار كوكـبُ ... بدا كوكـب تأوي إلـيه كواكـبـه
أضـاءت لهم أحسابُهم ووجـوههم ... دُجى الليل حتى نظم الجـزع ثاقبه
ومـازال منهـم حيث كان مَسـوّدُ ... تسـير المـنـايا حيثُ سار تائـبُـه[4]

* وقال الخريمي [البحر الطويل]:

إذا قمـر منهـا تغـوّر أو خبـأ ... بدأ قمـرٌ في جانـب الأفـق يلمـع

* وقال الحارث بن دوس الأيادي [البحر الرمل]:

ورجـالٌ حُسُـنٌ أوْجُـهُـهُـمْ ... من إياد بن نزار بن معـد

* وقال منصور النمري:

إن المـكـارم والمـعـروف أوْدية ... أدلـك الله منهـا حيثُ تجتـمـعُ

---

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣/٢٠١ ـ ٢٠٥، والبيان للجاحظ ٣/٢٩٧.
(٢) طالبوا المعروف.
(٣) بنو لام: من عمرو بن طريق من طيء.
(٤) انظر: أمالي المرتضى (١/١٨٦) الأغاني (١١/١٣٢) وعيون الأخبار (٤/٢٤) وفي معاني العسكري أنه أمدح بيت قالته العرب.

* وقال الأعشى [البحر الخفيف]:

فيهم الخصْبُ والسماحة والنجـ ـدةُ فيهم والخاطب المسْلاَقَ
وأبيُّونَ لايسَامون ضيمًا ومكيثون والحُلُوم وثَاقُ
وترى مَجْلسًا يَغَضُّ به المحرابُ بالقوم والثياب رقراق

* وقال أيضًا: [البحر الكامل]:

جلسوا مجلسهم على أحلامهم رُجْح العقول مخالفي الأفناد
وإذا اللقاح تروحت بعشيها رتك النعام عشية الصُدّادِ
وترى القدور كأنّها حبشَية غبر وقلّ حلائب الأرفاد
حبسوا على أضيافهم فشووا لهم من شحم منقية ومن أكباد
والدهر نميّر ذلك يابنة مالكٍ ولقدْ يغير صالحًا بفساد

* كان يقال: أربعة تزيد في البصر:

النظر إلى الوجه الحسن [المباح] وإلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، والنظر في المصحف.

* دخل الشعبي سوق الرقيق، فقيل له: هل مِنْ حاجة؟ فقال: حاجتي صورة حسنة يتنعمّ فيها طرْفي، ويلتذُّ بها قلبي، وتعينني على عبادة ربي.

* أدام إبراهيم النظام النظر إلى جارية حسناء، فقال مولاها:

أراك تديم النظرُ إليها، فقال: مالي لا أتأمَّل منها ما أحل الله، وفيه دليل على كلمة صنعة الله، ومعه اشتياق إلى ما وعد الله.

* وقال الحسن البصري: ينبغي للوجه الحسن ألا يشين وجهه بقبيح فعله، وينبغي لقبيح الوجه ألا يجمع بين قبيحين قال الشاعر:

إنَّ حُسْن الوجه يحتا جُ إلى حُسْن فِعال
حاجة الصادي من الماء إلى العذب الزّلال

* وقال عبدالله بن سليمان النحوي الأزدي السجستاني المكفوف:

تقــول من للعمى بالحُسن قلتُ لها ... كفــى عن الله في تحقـيقــه الخــبر
الــقــلبُ يُدْرك ما لا عين تدركُــهُ ... والحسنُ مااستحسنته النفس بالبصر
ومــا الـعيون التي تعمى إذا نظرت ... بل الـقـلوبُ التي يعْمى بها النــظرُ

* قال عقيل بن عُلفة: لأن ينظر إلى ابنتي مائةُ رجل خيرٌ من أن تنظر هي إلى رجل واحد.

* وقال محمود الوراق:

من أطلق الـطّرْف اجتنى شهْـوَةً ... وحــارسُ الـشـهــوة غض الـبصر
والـطرف للقـلب لسـانُ فإن ... أرادَ نطقًـا فليكـرّ الـنّـظر
يُفْهم بالعــين عن العــين مافي الــ ... ـقـلب من مكـنـون خير وشر
يطوي لسـان المـرء أخـبـارَه ... والـطرف لايمـلكُ طيّ الخــبر

* وقال النابغة يمدح بعض الملوك:

بأنــك شمْسُ والمـلوك كواكــب ... إذا طَلَعَــتْ لم يَبْــدُ منهنَّ كوْكُـبُ

* وقال آخر:

لاتــكــتــرنّ تــأمــلاً ... وامْـليك عليْل عنــان طَرْفـك
فلرُبّــمــا أرســلتــه ... فرَمَـاك في ميدان حَتْـفـكَ

* ومن أمثال العرب في الجمال:

ـ وهل يخفى القمر؟.

* وقال ذو الرُمّة:

وقــد بهرت فما تخفــى على أحــدٍ ... إلى على أحــدٍ لايعْــرف الـقــمــر

* ليس الجمال في الثياب.[1]

---

(١) مجمع الأمثال للميداني (٢/٢٥٧).

* وقال الشاعر معدي كرب:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رُدِيت بُرْداً
إن الجمال معادن ومناقب أورثن حمدًا

* أرين حَسَنًا أُرِكْهُ سَمينًا.

يقولون: قال رجل لرجل: أرني حسنًا، فقال: أريكه سمينًا، يعني أن الحُسن في السّمن، وهذا كقولهم: قيل للشحم: أين تذهب؟ قال: أقوّم المعْوَج.

* الرّقيقُ جمال وليس بمال.

وهذا كما قالوا: اشتر الموتان. ولاتشتر الحيوان.

* جَمَالك. أي ألزم مايورثُك الجَمال، يعني أجْمِيل ولاتفعل مايشينك.

* أجمل من ذي العمامة: هذا مثل من أمثال أهل مكة، وذو العمامة: سعيد بن العاص بن أمية، وكان في الجاهلية إذا لبس عمامة لايلبس فرشي عمامة على لوْنها، وإذا خرج لم تبق امرأة إلا برزت للنظر إليه من جماله.

* أجمل من البدن.

* أجمل من رعاية الذمام.

* أحسن من بدر الدجى.

* لن تعدم الحسناء ذامًا.

* من يَنْكح الحسناء يُعْط مهرها.

* الحُسْن أحمر. والمعنى إن الحُسْنُ في الحُمْرةَ. وقال الأزهري: الأحمر الأبيض، والعرب تُسمّي الموالي من عجم الفرس والروم «الحمَرْ» لغلبة البياض على ألوانهم، وكانت عائشة رضي الله عنها تُسمى «الحميراء» لغلبة البياض على لونها.

* إن من الحُسْن شِقوة، وذلك أن الرجل ينظر إلى حسنه، فيختال فيْعدوا طوْره، فيشقيه ذلك، ويبغضه إلى الناس.

* التحسُّن خير من الحُسْن.

* البياض نصف الحُسْنَ.
* عليه من الله إصْبع حَسن. أي أثر حسن.
* أحْسن من الدر.
* أحْسن من الدنيا المقبلة.
* أحْسن من الطاوُس، ومن سوق العروس، ومن زمن البرامكة، ومن الدنيا المقبلة، ومن الشمس والقمر، ومن الدُّر والديك.
* أحار من حياة مُعادة، ومن نيل المُنى، ومن النشب، ومن الولد، ومن العسل.
* أحْسنُ من بيْضه في روْضة. العرب تستحسن نقاء البيضة في نضارة خُضْرةَ الروضة(*).

(*) انظر في هذه الأمثال: مجمع الأمثال للميداني، كتاب الأمثال للقاسم بن سلام، وكتاب الدرة الفاخرة لحمزة الأصفهاني وكتاب جمرة الأمثال للعسكري.

ماقيل من الخاطر العاطر في الجمال:

* الجمال والفضيلة:

* الجمال الذي لافضيلة معه كالزهر الذي لارائحة، فيه.

* حسن الخُلق يستر كثيراً من السيئات. كما أن سوء الخلق يغطي كثيراً من الحسنات.

* جمال الحياة:

من عرف ربه رأى كل مافي الحياة جميلاً.

* ثلاث هنّ من خلق المؤمن:

١ ـ الإغضاء عن الزلة.

٢ ـ والعفو عند المقدرة.

٣ ـ نجدة الصديق مع ضيق ذات اليد.

* من أوتي حسن الخُلُق لاعليه مافاته من الدنيا.

* الحُسْن مرحوم.

* جمال الصورة وجمال النفس. لايأسرني جمال الصورة كما يأسرني جمال النفس في الإنسان، ولايستهويني جمال اللون كما يستهويني جمال العبير في النبات وتؤنسني وداعة الحيوان، وتعجبني قوته.

* **أنــواع الجمــال:**

جمال الـروح يهوّن عليك المصـائب، وجمال النفس يسهّل عليك المطالب، وجمال العقل يحقق لك المكاسب، وجمال الشكل يسبّب لك المتاعب.

* **مسابقات ملكات الجمال:**

من أبـرز مظاهـر مكـر الحضـارة الغربية بالمرأة ابتداعها مسابقات ملكات

الجمال، وملكات الأناقة، وملكات الإغراء، وملكات لانهاية لمالكهنَّ الوهمية.

* هل في ذلك إلا دليل على رغبة الرجل الغربي في الاستمتاع بأنوثة المرأة فقط، ودليل على أن المرأة عندهم لاتهمُّها كرامتها بقدر مايهمها لفت الأنظار إلى جمالها وأنوثتها.

* هذه المسابقة مصيدة.

* مسابقات ملكات الجمال مناسبة لاستمتاع رجال التحكيم والمتفرجين بأجسام الفتيات المتسابقات تحت ستار مشروع في رأي هذه الحضارة الزائفة كما هو مناسبة لاصطياد الأزواج للفتيات يخشين أن يصبحن كاسدات.

* مسابقات ملكات الجمال رقية الساحر الماكر لاستخراج الفتيات من بيوت آبائهنَّ إلى حيث يصبحن تحت سلطته وتصرفه.

* ألتقت فتاة جميلة عاقلة، مع فتاة جميلة دخلت مسابقة ملكات الجمال فقالت هذه لتلك بغرور ساذج: لقد صرت مشهورة تنشر الصحف صوري وتنقل وكالات الأنباء أخباري.

فقالت الأخرى: إن اللوحة الفنية التي لم تلمسها الأيدي أغلى ثمنًا وأبلغ لفتًا للأنظار من التي لمستها الأيدي حتى غيَّرت روعة ألوانها الطبيعية.

* ملكات الجمال ينسين بعد أيام، ولكن العالمات والعفيفات والمخترعات والأمهات اللاتي ولدن عظماء التاريخ، سيظل يذكرهن التاريخ مابقي إنسان يقرأ التاريخ.

* جمال الحياة: أن ترضى عما أنت فيه، ويرضى العقلاء عما أنت عليه.

* بم يحلو الجمال. لايحلو الجمال إلا بثلاث:

١ ـ صيانة عن الابتذال.

٢ ـ ومودة للأطهار.

٣ ـ وعفة مع الفجار[١].

* عن مسلم ابن صبيح الكوفي قال: سمعت أبي يقول: خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان الفتى طريرًا جميلًا، فأرسلت إليهما المرأة فقالت: إنكما خطبتماني ولست أجيب أحد منكما دون أن أراه وأسمع كلامه، فأحضرا إن شئتما، فحضرا فأجلستهما بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رآه المغيرة ونظر إلى جماله وشبابه وهيئته يئس منها، وعلم أنها لن تؤثره عليه، فأقبل على الفتى فقال له: لقد أوتيت جمالًا وحسنًا وبيانًا، فهل عندك سوى ذلك؟ قال: نعم. فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابك؟ قال مايسقط عليَّ منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردلة. فقال له المغيرة: لكنني أضع البدرة في زاوية البيت فينفقها أهلي على مايريدون فما أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها، فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لايحاسبني أحب إليَّ من هذا الذي يحصي عليّ مثل صغير الخردل، فتزوجت المغيرة.

حقيقـة الجمـال:

هل للجمال حقيقة قائمة موجودة؟ أم هو مجرد شعور نفسي تجاه شيء ما. وهذا الشيء لايوصف بجمال ولاقبح، وإنما شعورنا هو الذي جعله كذلك. وعلى هذا لايوجد شيء جميل أو قبيح لذاته.

وماكانت القضية تحتاج كبير اهتمام لولا أن بعضهم ذهب إلى الرأي الثاني. الأمر الذي يفضي إلى عدم استقرار المفاهيم، فما كان في نظرك حسناء ربما كان في نظر غيرك قبيحًا. ذلك أن الشيء أو الفعل ـ حسب رأيهم ـ ليس فيه قبح ولا حسن لذاته.

والقرآن الكريم رتَّب الآثار على رؤية الجمال وجعلها عامة، فقال في وصف البقرة **تسر الناظرين﴾**. و «الناظرين» تشمل كل ناظر. فلو لم يكن الجمال قائمًا

(١) انظر كتاب هكذا علمتني الحياة للدكتور/ مصطفى السباعي رحمه الله.

موجودًا فيها لما كان السرور عامًا يتناول كل من رآها.

وفي وصف الجنة: ﴿**وفيها ماتشتيه الأنفس وتلذ الأعين**﴾. جعل اللذة لكل عين يتاح لها الرؤية.. وهكذا فلو لم يكن الجمال مستقرًا فيها لكانت هي وغيرها سواء ولكانت اللذة لبعض الأعين.

وقد تكلم الإمام الغزالي في هذه القضية، ولم يستوقفه وجود الجمال في المحسوسات فتلك بدهية لاتحتاج إلى برهان ولكنه انصرف إلى تقرير وجود الجمال في غير المحسوسات أيضًا فقال: «فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة..»[1].

ولنستمع إلى ابن القيم يدلي برأيه في هذه القضية: قال رحمه الله:

«وهذا فصل في ذكر حقيقة الحسن والجمال ماهي؟ وهذا أمر لايدرك إلا بالوصف... وقيل: الحسن معنى لاتناله العبارة ولايحيط به الوصف»[2].

إنه يقرر وجود الحسن، وهذا أمر لاشك فيه، ولكنه يلفت النظر إلى وسيلة إدراكه.. وهذا الإدراك قد يكون الوصف وسيلة له، وقد يدق بعض الأحيان فيستعصي على العبارة.. ولكنه موجود.

وقد اهتم علماء المسلمين في وقت مبكر بهذه المسألة، والتي عرفت في علم أصول الفقه باسم «مسألة التحسين والتقبيح»، ونحن هنا لسنا أمام أراء فردية وإنما أمام آراء مدرسية. ويحسن بنا أن نلخص هذه المسألة بقول موجز[3].

والمسألة هنا تتعلق بالأفعال فقط، ولاتتناول الأشياء، ولكنها مع ذلك تناقش أصل المسألة وهي قضية الحسن الذاتي والقبح الذاتي.

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٩٩.

(٢) روضة المحبين: ص٢٣٢.

(٣) نلخص هذا الموضوع من كتاب: «مدارج السالكين» لابن القيم رحمه الله. ١/ ٢٣٠ ومابعدها، وشفاء العليل ص: ٣٩١ ـ ٤٣٤.

ومحور المسألة هو:

هل الأفعال منقسمة في الأصل إلى: حسن وقبيح. أي أن الحسن والقبح ذاتي فيها؟ أم أنها غير منقسمة إلى حسن وقبيح، وأن الحسن والقبح جاءها من الأمر والنهي الوارد بالشرع، وفي الأصل هي سواء؟

ونستطيع أن نقول: هناك ثلاثة مذاهب.

* ذهب «القدرية» إلى أن الأفعال كلها سواء، ولا أثر للعقل في التحسين والتقبيح ومرجع ذلك إلى الشرع.

قال ابن القيم: «وقد بيَّنا بطلان هذا المذهب من ستين وجهاً.. فإن هذا المتذهب، بعد تصوره وتصور لوازمه، يجزم العقل ببطلانه. وقد دل القرآن على فساده في غير موضع. والفطرة وصريح العقل».

ونقتطف فقرة من كلامه في مناقشة هذا الرأي:

* «إن الله سبحانه فطر عباده على استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر، وفطرهم على استقباح أضدادها، ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النتن إلى مشامِّهم وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم، وكذلك كل مايدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة، فيفرقون بين طيبه وخبيثه، ونافعه وضاره».

* وذهب المعتزلة إلى أن قبح الأفعال والعقاب عليها ثابتان بالعقل.

وقد بين ابن القيم غلط المعتزلة في قولهم بتلازم الأمرين أي القبح والعقاب وبرهن على غلطهم بأدلة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: ١٥.

* وذهب الكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع [1] إلى القول بأن حسن الأفعال وقبحها ثابت بالعقل، والثواب والعقاب متوقف على ورود الشرع.

ويؤيد ابن القيم هذا القول ويبين حججه وأدلته...

ونخلص من هذا كله إلى أن الغالبية العظمى من أهل السنة وكذلك المعتزلة متفقون على أن الحسن والقبح يثبتان بالعقل. وهذا يعني أن الحسن حقيقة قائمة في ذات الشيء، ولهذا استطاع العقل الاهتداء إليها.

وإذن فالجمال له حقيقة، وهذه الحقيقة تظهر من خلال «موجود» تكون صفة له، قد يكون هذا الموجود شيئًا وقد يكون فعلاً. وعلى هذا لن يختلف المشاهدون على وجود الجمال في أمر جميل، وإن كانوا قد يختلفون تبعًا لشعورهم على درجة ذلك الجمال. فيكون استشعاره وقوة تأثيره لدى إنسان أكبر منها لدى إنسان آخر. قال الإمام ابن حزم: «إن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه» [2]. فأكد بذلك أن الشعور يرفع درجة الحسن ولكنه لايوجده إذا كان معدومًا.

وإذا كان الجمال حقيقة، فما هي وسيلة إدراك هذه الحقيقة؟ وكيف يمكننا التعرُّف عليها:

ونكتفي في إيضاح هذا الجانب بنقل رأي الإمام الغزالي حيث قال:

«والصورة ظاهرة وباطنة، والحسن والجمال يشملهما.

وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر.

والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة» [3].

ويعطينا أمثلة لمدركات الحواس فيقول: «فلذّة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة..، ولذة الأذن في النغمات الطيبة

---

(1) هم أتباع المذاهب الفقهية: المالكية، والشافعية، والحنفية والحنابلة.

(2) نوادر الإمام ابن حزم. خرجه أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري. السفر الأول. ص١٤٢.

(3) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٠٠.

الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللمس في اللين والنعومة»[1].

«وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار»[2].

وهكذا يبين أن إدراك المحسوسات بالحواس، وإدراك المعاني بالعقل.

---

(١) المصدر نفسه ٤/٢٩٦.

(٢) المصدر نفسه ٤/٢٩٧.

الجمال والقيم

الحق والخير والجمال، . . . إنها حقائق في هذا الوجود . . وإنها قيم .

وهذا لايعني أنها في لقاء دائم وأن بعضها لايفارق بعضها الآخر. وإنما يعني بيان مستوى أهميتها في هذه الحياة .

فالجمال له شخصيته المستقلة في التصور الإسلامي . وهذا لاينفي لقاءه مع الحق والخير، ولكنه أيضًا لاينفي وجوده في مجالات لاحق فيها ولاخير.

وبناء على خاصية الشمول ـ التي سيأتي الحديث عنها ـ فإن الحق والخير هما من الميادين التي للجمال فيها كلمة ورأي .

فالخير خير، ولكنه إذا زيِّن بالجمال كان أقرب إلى الكمال .

والحق حق ولكنه إذا زيِّن بالجمال كان أدق في تحقيق العدل .

فالأمر بالمعروف خير، ولكنه إذا كان بأسلوب مهذب، بعيدًا عن الفظاظة والغلظة، أي كان بالمعروف، . . كان أقرب إلى تحقيق الجدوى . . لأنه في هذه الحالة أجمل .

والصدقة على الفقير المحتاج خير ولكنها إذا كانت على طريقة علي زين العابدين[1] رحمه الله كانت خيرًا وجمالاً .

وقد يوجد الجمال حيث لايوجد الخير وقد أشار القرآن الكريم إلى مثال على ذلك بقوله : ﴿**ولأمه مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم**﴾[2]، فقد وجد الجمال هنا لدى المشركة ولكنه لم يوجد الخير.

وهكذا . . فللجمال كيانه المستقل وصداقاته الحميمة . .

---

(١) يروي عنه أنه كان يكرم السائل ويقول له : أهلاً بمن يحمل زادنا إلى الآخرة .

(٢) سورة البقرة : ٢٢١ .

ميادين جمالية أتى بها الاسلام

مما سبق يتبين لنا أن الظاهرة الجمالية قائمة في كيان التصور الإسلامي، ولذا فهي عامة شاملة. ولا أدلّ على عمومها من أن القرآن الكريم أدخل الجمال إلى مجالات لا عهد للناس برؤيته في ميادينها، وذلك إما لعدم التوافق بينه وبينها - فيما يبدو لأول وهلة - أو لاختلاف في طبيعة كل منهما عن الآخر، فيما يخيل للمتأمل.

ويحسن بنا أن نمعن النظر في هذه المواطن:

(أ) ميدان الصبر:

فقد جاء موصوفًا بالجمال ثلاث مرات في كتاب الله تعالى، منها ثنتان في سورة يوسف، وردتا في سياق النصين التاليين:

﴿قالوا يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنَّا له لناصحون. أرسله معنا غدًا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون. قال إني ليحزنني أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنَّا إذًا لخاسرون. فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون. وجاؤوا أباهم عشاء يبكون. قالوا يا أبانا إنَّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وماأنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين. وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾[1].

﴿... يا أبانا إن ابنك سرق وماشهدنا إلا بما علمنا وماكنا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنَّا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنَّا لصادقون. قال بل سولت

---

(١) سورة يوسف: ١١ - ١٨.

لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا إنه هو العليم الحكيم﴾[1].

في النص الأول نجد الأب العطوف يفقد ابنه، الحبيب إلى قلبه، العزيز على نفسه، يفقده في حالة متعمدة، للغدر والخيانة دور كبير فيها، وهو غير قادر على أي تصرفٍ أو قيامٍ بعمل. فالأمر مدبر محبوك الأطراف.. فلجأ إلى الصبر.

والصبر عمل نفسي محض[2]، لايشارك فيه أحد أحدًا، إنه تماسك يقوم داخل النفس حتى لاتنهار أمام المصيبة أو الكارثة، إنه انتقال من حال الجزع والضعف والخور إلى تماسك وتجلد، ومن حزن يفقد الإنسان صوابه إلى حزن مع الرضى بقضاء الله تعالى.

وهكـذا كان الصبر في هذه الحال هو وسيلة التجميل، إذ به يكون الموقف الأحسن والأجدى.

وفي النص الثاني، نشاهد يعقوب عليه السلام، وقد فقد ولده الثاني، إنه في حال لاتقـل كآبـة عن الحال الأولى. إنه يشعر وكأن المرحلة الثانية من القصة متممـة للأولى.. ولكن الثـانية أعادت ذكريات الأولى. فاشتد الأمر وعادت الجروح تنزف من جديد.. ثم لايجد ملاذًا غير الصبر، فهو الموقف «الجميل» من بين جميع المـواقف المحتملة في هذا الموضع، إذ الهلع والذعر لن يردا غائبًا أو يسترجعا مفقودًا، ولكنهما يضعفان القدرة على التحمل والثبات في مواجهة الصعاب.

ويستكمل الصبر جماله ـ في الموقفين ـ بعدم اليأس من رحمة الله تعالى وهو ماعبَّر عنه يقعوب بقوله: **﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا﴾**.

إن الجـمال يدخل ميدانًا جديدًا. ولكنه في وضع يتناسب فيه مع الموقف،

---

(١) سورة يوسف: ٨١ ـ ٨٣.

(٢) هذا لا ينفي أن يكون له أثر مادي.

والانسجام والتوافق من سمات الجمال. «فالجمال البائس» جميل في مواطن الأسى والحزن، و«الجمال الضاحك» جميل في مواطن الفرح والسرور. ولو وضع الواحد منهما مكان الآخر لما كان جمالاً بل سماجة وقبحًا.

وللصبر مجالات كثيرة متعددة، ولذا يضع القرآن الكريم أمامنا موقفًا آخر[1] من مواقف الصبر الجميل، التي يكون فيها أكثر فاعليةً وأبعد أثرًا.

إنه الصبر في مجال الدعوة إلى الله، حيث الحاجة إلى الكثير الكثير من التحمُّل والجلد والثبات والاستمرار، الحاجة إلى الحلم وسعة الصدر كما هي الحاجة إلى تحمل الإيذاء مادة ومعنى. وفي هذا الصدد ورد قوله تعالى خطابًا لرسوله ﷺ: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾[2].

إن الصبر في الحالة الأولى - في قصة يعقوب - عمل سلبي يرأب الصدع الذي حصل ولكنه هنا دفعة من القوة النفسية تجعل للإنسان قدرة أكبر على مواصلة السير ومتابعة الطريق إنه عمل نفسي أيضًا ولكنه إيجابي[3] وكونه جميلاً يساعد على أن تكون النفس في وضع صحيح.

ونحن إذا نظرنا إلى الحياة، نظرة عملية، وجدنا أن المشاق تشغل مساحة غير صغيرة منها، وللتغلب على هذه المشاق وتحملها نحتاج إلى الصبر، وإنه وفقًا

---

(١) وهو ثالث المواطن التي وصف فيها الصبر بالجمال في القرآن الكريم.

(٢) سورة المعارج: ٥.

(٣) قال الإمام الغزالي في أنواع الصبر:

«اعلم أن الصبر ضربان:

أحدهما: ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها. وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة. وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجرحات الهائلة. وذلك قد يكون محمودًا إذا وافق الشرع.

ولكن المحمود التام، هو الضرب الآخر. وهو الصبر النفسي..» ا. هـ.

إحياء علوم الدين ٤/٦٦-٦٧ ط دار المعارف بيروت.

لعموم الظاهرة الجمالية، فإن تَرْكَ هذا الميدان يعني ترك مساحة كبيرة دون تغطية، والإسلام يحمل الخير والجمال لهذا الإنسان في كل حالاته، ولذا لم يترك هذا الجانب دون أن يزينه بجماله. . فكان الصبر الجميل.

٢ - ميدان الدعوة إلى الله:

قال تعالى: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا**﴾. ومعنى الآية: أنه لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله.

إنه تجلّد وأمل، إنه اطمئنان نفسي. وصبر على أذى الناس.

فالدعوة إلى الله هي طريق الأنبياء والصالحين. وقد قال النبي ﷺ فيما أخرجه الإمام البخاري بصحيحه لعلي بن أبي طالب: لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم.

٣ - ميدان هجر العاصي..

فقد هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خُلِفّوا عن معركة تبوك.

٤ - ميدان التوكل على الله..

ميدان التوكل على الله. . وهو ميدان يفسح النفس ويقرِّب الأمل والرجاء: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾.

٥ - ميدان الصبر على القضاء..

فمن لم يرض بالقضاء لم يهنأ له عيش.

٦ - ميدان الرحمة:

وهو ميدان يدخل في النفس الإنسانية الراحة والتواضع والاهتمام بالآخرين وقد قال الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ. . ﴿. . . **بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾. سورة التوبة.

وقال ﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**». حديث صحيح رواه أصحاب الصحاح.

٧ ـ ميدان العدل:

الذي هو أساس الحب والسلام في الأرض كما قال تعالى : ﴿**اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ .

٨ ـ ميدان الاعتصام بالكتاب والسنة والابتعاد عن سفاسف الأمور.. وغيرها من الميادين الإسلامية . .

ولا أريد أن أطيل في هذه المقدمة كثيراً . والله المستعان .

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة لابن تيمية

(١)اسمه:

هو شيخ الإسلام أبو العباس: أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن محمد بن الخضر، بن علي بن عبدالله بن تيمية الحراني ثم الدمشقي.

وتيمية هي والدة جده الأعلى (محمد). وكانت واعظة راوية.

(٢) مولده ووفاته:

ولد يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول، بحران سنة ٦٦١ هـ ولما بلغ من العمر سبع سنوات انتقل مع والده إلى دمشق، هربًا من وجه الغزاة التتار، وتوفي ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة سنة (٧٢٨) وعمره (٦٧) سنة وهو مسجون بسجن القلعة بدمشق وحضر جنازته جمهور كبير جدًا يفوق العدد رحمه الله.

(٣) نشأته:

نشأ في بيت علم وفقه ودين، فأبوه وأجداده، وإخوانه وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير، منهم جده الأعلى (الرابع) محمد بن الخضر، ومنهم عبدالحليم بن محمد بن تيمية، وعبدالغني بن محمد بن تيمية، وجده الأدنى عبدالسلام بن عبدالله بن تيمية مجد الدين أبو البركات صاحب التصانيف التي منها: المنتقى من أحاديث الأحكام وقد قام الشوكاني بشرحه في كتابه «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، والمجرد في الفقه، والمسودة في الأصول وغيرها، وكذلك أبوه وأخوه عبدالحمن وغيرهم. ففي هذه البيئة العلمية الصالحة كانت نشأة صاحب الترجمة وقد بدأ بطلب العلم أولاً على والده وعلماء بلاده، فحفظ القرآن وهو صغير، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير، وعرف بالذكاء وقوة الحفظ

والنجـابـة منـذ صغره، ثم توسع في دراسة العلوم وتبحر فيها، واجتمعت فيه صفات المجتهد واعترف له بذلك الداني والقاصي والقريب والبعيد وعلماء عصره.

(٤) خصـاله:

تميّز شيخ الإسـلام ابن تيمية بالإضافة إلى العلم والفقه في الدين، والأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، بخصال حميدة، فكان سخياً كريمًا، كثير العبارة والذكر وقراءة القرآن، وكان ورعًا زاهدًا متواضعًا، ومع ذلك فقد كانت له هيبة عند السلطان وقصته مع سلطان التتار معروفة، كما عُرف رحمه الله بالصبر وقوة الاحتمال في سبيل الله.

(٥) جهـاده:

جاهد شيخ الإسلام فارس المعقول والمنقول في الله حق جهاده، فقد جاهد بالسيف وحرّض المسلمين على القتال بالقول والعمل، فقد كان يصول ويجول بسيفـه في ساحات الوغى مع أعظم الفرسان والشجعان، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكا عجبوا من شجاعته وفتكه بالأعداء.

وقد قام بالدفاع عن دمشق عندما غزاها التتار، وحاربهم عند شقحب ـ جنوبي دمشق ـ وكتب الله هزيمـة التتـار، وبهذه المعركة سلمت بلاد الشام وفلسطين ومصر والحجاز.

وطلب من الحكام متابعة الجهاد لإبادة أعداء الأمة الذين كانوا عونًا للغزاة، فأجج ذلك عليه حقد الحكام وحسد العلماء والأقران، ودس المنافقين والفجار، فناله الأذى والسجن والنفي والتعذيب، فما لأن ولاخضع. وكانت كلمته المشهورة:

مايصنع أعدائي بي؟!! أنا جنتي وبستاني في صدري أنّي رحت، فهي معي لاتفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان

يقول في سجنه: المحبوس من حُبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه.

أما جهاده بالقلم واللسان فإنه رحمه الله وقف أمام أعداء الإسلام من أصحاب الملل والنحل والفرق والمذاهب الباطلة والبدع كالطود الشامخ، فقد تصدى للفلاسفة، والباطنية، من صوفية، وإسماعيلية ونصيرية وروافض، كما تصدى للملاحدة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة، ولاتزال بحمد الله ردود الشيخ سلاحًا فعالاً ضد أعداء هذا الدين العظيم على مر الدوام وذلك لأنها إنما تستند على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي السلف الصالح، مع قوة الاستنباط، وقوة الاستدلال والاحتجاج الشرعي والعقلي، وسعة العلم، التي وهبها الله له، ولاتزال ردود الشيخ وكتبه هي أقوى سلاح بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ للتصدي لهذه الفرق الضالة والمذاهب الهدامة التي راجت اليوم وهي امتداد للماضي، وغيّرت أسماءها فقط مثل البعثية، والاشتراكية، والقومية والبهائية والقاديانية وغيرها من الفرق.

(٦) عصره:

لقد عاش المؤلف شيخ الإسلام في عصر كثرت فيه البدع والضلالات، وسادت كثير من المذاهب الباطلة، وانتشر الجهل والتعصب والتقليد الأعمى، وبدأ التتار في غزو العالم الإسلامي وأيضًا فقد شنّ الصليبيون حملاتهم الواسعة ضد المسلمين، وانتشرت في عهد الشيخ الفلسفة والإلحاد والجدل وهيمنة التصوف. وقد وقف الشيخ إزاء هذه الخزعبلات موقفًا مشهودًا ونصر الله به السنة وأهلها ولله الحمد والمنّة.

(٧) مؤلفاته وإنتاجه العلمي:

يعتبر شيخ الإسلام من العلماء الأفذاذ الذين تركوا تراثًا ضخمًا ثمينًا، لايزال العلماء والباحثون ينهلون منه وقد ألف ابن قيّم الجوزية كتب ورسائل شيخه ابن تيمية التي قام بتأليفها وهي مطبوعة.

وقـد زادت مؤلفـاتـه على ثلاثـمائة مؤلف في مختلف العلوم، ومنها ما هو في المجلدات المتعددة؛ وسأذكر بعضًا من مؤلفاته منها:

١ ـ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول.

٢ ـ إثبات المعاد.

٣ ـ ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً.

٤ ـ الرد على الحلولية والاتحادية.

٥ ـ الاستقامة في مجلدين.

٦ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية وتقع في (٣٧) مجلدًا وجمعها عبدالرحمن بن قاسم.

٧ ـ إصلاح الراعي والرعية.

٨ ـ منهاج السنة.

٩ ـ الاحتجاج بالقدر.

١٠ ـ الإيمان.

١١ ـ حقيقة الصيام.

١٢ ـ الرسالة التدمرية.

١٣ ـ الرسالة الحموية.

١٤ ـ شرح حديث النزول.

١٥ ـ العبودية.

١٦ ـ المظالم المشتركة.

١٧ ـ الواسطة بين الحق والخلق.

١٨ ـ الفرقان بين أولياء الرحمـن وأولياء الشيطان.

١٩ ـ الكلم الطيب.

٢٠ ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام.

٢١ ـ حجاب المرأة ولباسها في الصلاة.

٢٢ ـ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.
٢٣ ـ الرسالة العرشية.
٢٤ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. وغير ذلك كثير وكثير جدًا وقد أفردت ترجمته في كتب متعددة منها العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن عبدالهادي، وأيضًا الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي، ومنها الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزاز وحياة ابن تيمية للبيطار وابن تيمية للاستنبولي وغيرها، فرحم الله شيخ الإسلام وجمعنا به في دار كرامته ورضوانه مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا آمين.

غير ما تقدم:

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير ج١٤/١٣٥ ـ ١٣٩.
٢ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٢/ص٨٠ ـ ٨٦.
٣ ـ فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي (ج١/٧٤ ـ ٨٠).
٤ ـ كتاب الذيل على طبقات الحنابلة: لأبي الفرج عبدالرحمن البغدادي ص (٣٨٧ ـ ٤٠٨)
٥ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي ج ١/١٤٤.

ترجمة موجزة لابن قيم الجوزية

هو الإمـام المحقق الحـافظ الأصولي الفقيه النحوي صاحب الذهن الوقاد والقلم السيال، والتآليف الكثيرة الماتعة، شمس الدين أبوعبدالله، محمد بن أبي بكـر بن أيوب ابن سعـد بن حريز الـزرعي الـدمشقي المشهـور بـ: ابن قيم الجـوزية، نسبـة إلى المـدرسـة التي أنشـأها محي الدين أبوالمحاسن يوسف بن عبدالرحمن بن علي بن الجوزي[1] المتوفى سنة ٦٥٦هـ لأن أباه كان قيمًا عليها.

ولد في بيت علم وفضل في السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة في قرية زرع من قرى حوران تبعـد عن مدينـة دمشق خمسة وخمسين ميلاً جنوب شرقيها، وقد تحول إلى دمشق، وتتلمذ لطائفة من علمائها، فأخذ عن أبيه علم

(*) مصادر ترجمته: «ذيل طبقات الحنابلة» ٢/٤٤٧، ٤٥٢ لابن رجب الحنبلي، «البداية والنهاية» ١٤/٢٣٤، ٢٣٥ لابن كثير الدمشقي، «الدرر الكامنة» ٤/٢١، ٢٣ لابن حجر العسقلاني «الـوافي بالـوفيات» ٢/٢٧٠، ٢٧٢ للصفـدي، «شذرات الذهب» ٦/١٦٨، ١٧٠ لابن العـماد، «الـرد الوافر» صفحة ٦٨، ٦٩ لابن ناصر الدمشقي، «بغية الوعاة» ١/٦٢، ٦٣ للسيوطي، «النجوم الزاهرة» ١٠، ٢٤٩ لابن تغري بردي، «البدر الطالع» ٢/١٤٣ - ١٤٦ للشوكاني، «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» ص٣٠، ٣٢.

(١) فرغ من بنائها سنة (٦٥٢هـ)، وممن درس بها من العلماء: ابن المنجا، والجمال المرداوي، وابن قاضي الجبل، والبرهان بن مفلح وغيرهم، وأمَّ بها ابن القيم، ووصفها الحافظ ابن كثير بأنها من أحسن المدارس، وقد احترقت سنة (٨٢٠هـ) على ما ذكره ابن قاضي شهبة، ثم أعاد عمارتها شمس الدين النابلسي، كانت في أول سوق البزورية بدمشق المسمى قديمًا سوق القمح، وقد اختلس جيرانها معظمها، وبقي منها بقية صارت محكمة إلى سنة (١٣٢٧هـ)، ثم أقفلت مدة إلى أن افتتحتها جمعية الإسعاف الخيري، وجعلتها مدرسة لتعليم الأطفال، وقد احترقت أول الثورة السورية، ولم تزل كذلك حتى أعمرت حوانيت، وجعل فوقها مسجد صغير تقام فيه بعض الصلوات إلى يومنا هذا.

الفرائض، فإنه كان مبرزًا فيه، وقد وصفه الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» ١/ ٤٧٢ بالتعبد وقلة التكلف.

وسمع الحديث من الشهاب النابلسي، والقاضي تقي الدين بن سليمان، وأبي بكر بن عبد الدائم، وعيسى المطعم، وإسماعيل بن مكتوم، وفاطمة بنت جوهر، وغيرهم.

وأخذ العربية عن ابن أبي الفتح البعلي، فقرأ عليه «الملخص» لأبي البقاء، ثم قرأ «الجرجانية» ثم ألفية ابن مالك، وأكثر «الكافية الشافية» وبعض «التسهيل» وقرأ على الشيخ مجد الدين التونسي قطعة من المقرب لابن عصفور.

وتلقى الأصول والفقه على الشيخ صفي الدين الهندي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ إسماعيل بن محمد الحراني، فقرأ عليهم «الروضة» لابن قدامة المقدسي، و«الإحكام» للآمدي، و«المحصل» و«المحصول» و«الأربعين» للرازي، و«المحرر» لابن تيمية الجد.

وقد لازم شيخ الإسلام ابن تيمية ملازمة تامة منذ عودته من مصر سنة (٧١٢هـ) إلى وفاته سنة (٧٢٨هـ) ست عشرة سنة وهو إذ ذاك في ريعان شبابه، وذروة قوته، واكتمال مدركه، فنهل من فيض علمه الواسع، واستمع إلى آرائه الناضجة السديدة، وغلب عليه حبه، حتى كان يأخذ بأكثر اجتهاداته، وينتصر لها، ويتوسع في التدليل على صحتها، وضعف مايخالفها، وهو الذي هذب كتبه، ونشر علمه.

وأهم ما استفاده منه: دعوته إلى الأخذ بكتاب الله تعالى الكريم، وسنة رسوله الصحيحة، والاعتصام بهما، وفهمهما على النحو الذي فهمه السلف الصالح، وطرح ما يخالفهما، وتجديد ما درس من معالم الدين الصحيح، وتنقيته مما ابتدعه المسلمون من مناهج زائفة من تلقاء أنفسهم خلال القرون السالفة، قرون الانحطاط والجمود والتقليد الأعمى، وتحذير المسلمين مما تسرب إلى الفكر

الإسلامي من خرافات التصوف، ومنطق يونان، وزهد الهند.

ويستطيع القارىء أن يتبين مدى تأثير شيخه عليه من مؤلفاته الكثير المتنوعة التي تلح بقوة وإصرار على إعطاء كتاب الله تعالى حقه من العناية به، والعكوف على دراسته، وتدبر اياته ومعانيه، وبيان قيمة السنة الصحيحة، والتنويه بها، والكشف عما تنطوي عليه، من بيان للقرآن، وتفصيل لمجمله، وتوضيح لمعانيه، وتوكيد لحقائقه، وتبصير بمعالم الطريق السوي الذي يأخذ بأيديهم إلى العلم الصحيح الخالص من شوائب الجمود والتقليد. وهو يُعد بحق في زمرة أولئك المفكرين المصلحين الذين استنارت بأفكارهم المبثوثة في تفاريق مؤلفاتهم عقول معاصريهم ومن أتى بعدهم إلى يومنا هذا، وتنورت قلوبهم، وانجلى ما لصق بمرآتها من صدأ الشك والجمود، وانحل ما انعقد في أذهانهم من شبه الزيغ والارتياب. وترجمة هذا الإمام باستيفاء تخرج في مجلد كبير، وقد ترجم كذلك: فمن ترجم له الأستاذ محمد بن مسلمة الغنيمي واسم كتابه: ابن قيم الجوزية، وترجم له بكر بن عبد الله أبوزيد في كتابه: ابن القيم في حياته وآثاره وغيرهما.

ومن آرائه فيما يتعلق ببحثنا:

يرى أن الحسن والقبح في الأفعال عقليان يدركهما العقل، والله فطر عباده على استحسان الصدق والعدل والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر، وفطرهم على استقباح أضدادها، وأن الثواب والعقاب شرعيان يتوقفان على أمر الشارع ونهيه، ولا يجبان عن طريق العقل، فهو يقول: والحق الذي لا يجد التناقض إليه السبيل أن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون العمل القبيح موجبًا للعقاب مع قبحه في نفسه، بل هو في غاية القبح، والله لا يعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل، فالسجود للشيطان والأوثان، والكذب والزنى، والظلم والفواحش كلها قبيحة في ذاتها، والعقاب عليها مشروط بالشرع.

تلامذتـــه

وقد تلقى عن المؤلف ـ رحمه الله ـ كثير من العلماء المشهود لهم بالفضل في حياة شيخه وإلى أن مات وانتفعوا به أيما انتفاع.

١ ـ فمنهم الإمام الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي العالم الزاهد العمدة الثقة، صاحب المؤلفات المفيدة في الحديث والفقه والتاريخ، وقد لازم مجلس المؤلف إلى أن مات ـ توفي رحمه الله ـ سنة (٧٩٥هـ).

٢ ـ ومنهم الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الدمشقي، نشأ بدمشق، وسمع من أفاضل علمائها، وعني بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وله تآليف كثيرة، أعظمها تفسيره المعروف، و«البداية والنهاية»، وصفه الذهبي في معجمه المختص بالإمام المفتي المحدث البارع الفقيه المتفنن المتقن المفسر، مات ـ رحمه الله ـ سنة (٧٧٤هـ).

٣ ـ ومنهم الشيخ الإمام الحافظ عمدة المحدثين شمس الدين أبوعبدالله محمد ابن أحمد بن عبدالهادي بن عبدالحميد بن عبدالهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الصالحي، عني بالحديث وأنواعه، ومعرفة رجاله وعلله، وتفقه وأفتى ودرس، وجمع، وألف، وكتب الكثير وصنف، وتصدى للإفادة والاشتغال في فنون من العلوم، قال الذهبي عنه، والله ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه، توفي ـ رحمه الله ـ سنة (٧٤٤هـ).

٤ ـ ومنهم شمس الدين أبوعبدالله محمد بن عبدالقادر بن محي الدين عثمان ابن عبدالرحمن النابلسي الحنبلي، ولد بنابلس، وسمع بها من عبدالله بن محمد ابن يوسف، وسمع على الحافظ العلائي، والشيخ إبراهيم، وغيرهم ممن لا

يحصى كثرة. ورحل إلى دمشق، وصحب ابن القيم، وتفقه به، وقرأ عليه أكثر تصانيفه، وكان يقال له: الجنة لكثرة ما عنده من العلوم، توفي - رحمه الله - سنة (٧٩٧هـ).

٥ - ومنهم ولده إبراهيم، ذكره الذهبي في معجمه المختص: تفقه بأبيه، وشارك بالعربية، وسمع وقرأ، واشتغل بالعلم، قال ابن كثير: كان فاضلاً في النحو والفقه على طريقة أبيه. . . وكانت وفاته - رحمه الله - سنة (٧٦٧هـ).

٦ - ومنهم ولده شرف الدين عبدالله، ذكر الدرس بالصدرية[1] عوضًا عن أبيه رحمه الله، فأفاد وأجاد، وسرد طرفًا صالحًا في فضل العلم وأهله.

---

(١) هي من مدارس الحنابلة أنشأها أسعد بن عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخي ثم الدمشقي، كانت بدرب يقال له: درب الريحان، كان محلها دارًا للوقف، فجعلها مدرسة، وقد درس بها: ابن عبد الهادي، وابن القيم، وابنه إبراهيم، وغيرهم، وقد محيت آثارها، وصارت دورًا، ولا ذكر لها اليوم.

أقوال العلماء فيه

لقد وصفه كل من ترجم له بجملة أوصاف تنبيء عن عظيم فضله، وعلو مرتبته، واتساع دائرته.

قال الحافظ ابن رجب: كان عارفًا بالتفسير لا يُجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام، وبكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم.

وكان ـ رحمه الله ـ ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتألُّه، ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة والإنابة، والافتقار إلى الله تعالى، والانكسار له، والإطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعانى القرآن والسنة، وحقائق الإيمان، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله.

وقال الحافظ الذهبي: عني بالحديث ومتونه وبعض رجاله، وكان يشتغل في الفقه، ويجيد تقريره، وبالنحو ويدريه، وفي الأصلين، وتصدر للاشتغال، ونشر العلم.

وقال الحافظ ابن كثير: برع في علوم متعددة، لاسيما علم التفسير، والحديث، والأصلين، ولما عاد ابن تيمية من مصر سنة (٧١٢هـ) لازمه إلى أن مات، فأخذ عنه علمًا جمًا، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهارًا، وكثرة الابتهال، وكان حسن القراءة والخلق، كثير التودد، لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه، ولا يحقد على أحد، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه.

وقال ابن ناصر الدمشقي: وكان ذا فنون من العلوم، وخاصة التفسير والأصول من المنطوق والمفهوم، وقال: قال أبوبكر محمد بن المحب فيما وجد بخطه: قلت أمام شيخنا المزي: ابن القيم في درجة ابن خزيمة؟ فقال: هو في هذا الزمان، كابن خزيمة في زمانه.

وقال القاضي برهان الدين الزرعي: ما تحت أديم السماء أوسع منه علمًا، درس بالصدرية، وأم الجوزية، وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة، وصنف تصانيف كثيرة جدًا في أنواع العلوم، وكان شديد المحبة للعلم وكتابته، ومطالعته وتصنيفه، واقتناء كتبه، واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره.

وقال الحافظ ابن حجر: كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف[1].

وقال الشوكاني: كان متقيدًا بالأدلة الصحيحة، معجبًا بالعمل بها، غير معول على الرأي، صادعًا بالحق، لا يحابي فيه أحدًا.

---

(١) وهو كثير النقل عنه في «فتح الباري» من كتاب «زاد المعاد» وغيره، تارة يصرح باسمه، وتاره يغفله.

تصانيفـه

صنف ـ رحمه الله ـ تصانيف كثيرة، بلغت نيفًا وستين كتابًا في مختلف العلوم، منها ما هو كبير يقع في مجلدات، ومنها ما هو في مجلد، وجميعها جيد مفيد في بابه.

فله في الفقه وأصوله «إعلام الموقعين عن رب العالمين» و«الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» و«إغاثة اللهفان في مكائد الشيطان» و«تحفة المودود في أحكام المولود» و«أحكام أهل الذمة» و«الفروسية» وفي الحديث والسيرة «تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته» و«زاد المعاد في هدي خير العباد» وفي العقائد: «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» و«الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» و«شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» و«هـداية الحيارى من اليهود والنصارى». و«حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» و«كتـاب الـروح» وفي الأخـلاق والرقائق «مدارج السالكين» و«عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» و«الداء والدواء». و«الوابل الصيب من الكلم الطيب». وفي العلوم المختلفة «التبيان في أقسام القرآن» و«بدائع الفوائد» و«الفوائد» و«جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» و«روضة المحبين» و«طريق الهجرتين وباب السعادتين» و«مفتاح دار السعادة» وغيرها من الكتب النافعة.

وفاتــــه

توفي ـ رحمه الله ـ وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة (٧٥١هـ) وصلى عليه من الغد بجامع دمشق الكبير، ثم بجامع الجراح قرب المقبرة التي دفن فيها بالباب الصغير، وقبره معروف حتى الآن، فهو على يسار الداخل إلى المقبرة من الباب الجديد الذي وسع منذ أكثر من عشرين سنة، وقد أُزيل القبر من موضعه، وأبعد أكثر من مترين إلى الشرق ـ رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه بحبوحة جناته.

هذا ما يسر الله كتابته في هذه المقدمة وأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن ينفع به قارئه وطالبه. وأن يعيده من شوائب الأكدار. وأن يجعل له القبول بين عباده إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه.

وسبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

وكتبــــه: (المعتز بالله وحده)

إبراهيم بن عبدالله الحازمي

عفا الله عنه وعامله بلطفه

الرياض: ٦/١٠/١٤١٢هـ

القسم الثاني

المحقق

الجمال

فضله - حقيقته - أقسامه

تأليف
شيخ الاسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني



قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

فصـــل
في محبـة الجمـال

ثبت في صحيح مسلم عن عبــدالله بن مسعـود عن النبي ﷺ أنـه قال: «**لايـدخـل النـار أحـد في قلبـه مثـال حبة خردلٍ من إيمان. ولايدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردلٍ من كبر**»[1].

وفي رواية: «**لايدخل الجنة من [كان] في مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: إن الـرجـل يحب أن يكـون ثوبه حسنا ونعله حسنًا فقال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»

فقوله: إن الله جميل يحب الجمال قد أُدرج فيه حسن الثياب التي هي المسئول عنهـا، فعُلم أن الله يحب الجـمال [و] الجميل من اللباس، ويدخل في عمومه وبـطريق الفحـوى الجميل من كل شيء. هذا كقـوله في الحديث الذي رواه [الترمذي]: «**إن الله نظيف يحب النظافة**»[2].

---

(١) الحديث عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في: مسلم ١/٩٣ (كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه) إلا أن فيه «من كبرياء» والحديث مع اختلاف يسير في الألفاظ ـ في: سنن أبي داود ٤/ ٨٤ (كتاب اللباس، باب ماجاء في الكبر)، سنن ابن ماجة ١/ ٢٢ ـ ٢٣ (المقدمة، باب في ا لإيمان).

(٢) عن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه في: سنن الترمذي ٤/ ١٩٨ وأوله: إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم.. الحديث. وقال الترمذي: «هذا حديث غريب وخالد بن إلياس يُضعَّف، ويقال: ابن إياس» وقد ضعف الحديث أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذي والمباركفوري في التحفة (٤/ ٢٠) وحسّنه الألباني في تحقيقه على المشكاة رقم ٤٤٨٨ ولعله بشواهده فقد ورد له شاهد من حديث عائشة عند الطبراني في الأوسط قال الهيثمي =

وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «**إن الله طيب يحب الأطيباء**»[1]. وهذا مما يُستدل به على استحباب[2] التجمل في الجُمَع والأعياد، كما في الصحيح أن عمر بن الخطاب رأى حلةً تباع في السوق فقال: يارسول الله لو اشتريت هذه تلبسها؟ فقال: «**إنما يلبس هذه من لاخَلاقَ[3] له في الآخرة**»[3].

وهذا يوافقه في حسن الثياب مافي السنن عن أبي الأحوص الجشمي قال: رآني النبي ﷺ وعليَّ أطمار، فقال: «**هل لك من مال؟ قلت: نعم. قال: من أي**

= في المجمع (٥/١٣٢) رواه الطبراني في الأوسط وفيه نعيم بن مُورع وهو ضعيف. وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه أبو الصعاليك الطرسوسي في جزئه. ورواه الرافعي في تاريخ قزوين. فهذه الشواهد تدل على ان الحديث حسن إن شاء الله.

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ، وجاء الحديث في الترمذي (انظر التعليق السابق) بلفظ مقارب، كما جاء حديث صحيح في: مسلم ٢/٧٠٣ (كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها) عن أبي هريرة رضي الله عنه وأوله: أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.. الحديث. وهذا الحديث أيضًا في: سنن الدارمي ٢/٣٠٠ (كتاب الرقاق، باب في أكل الطيب)، المسند (ط. الحلبي) ٢/٣٢٨.

(٢) في الأصل «اسحباب» والصواب ماأثبته.

(٣) الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في: البخاري ٢/٤ (كتاب الجمعة، باب يلبس أحسن مايجد) وأوله: أن عمر بن الخطاب رأى حلة سيراء عند باب المسجد، فقال: يارسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك. فقال رسول الله ﷺ: إنما يلبس هذه من لاخلاق له في الآخرة... الحديث. وهو في: البخاري ٣/٦٣ (كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء)، مسلم ٣/١٦٣٨ - ١٦٤١ (كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة.. إلخ)، سنن النسائي ٣/٧٨ (كتاب الجمعة، باب الهيئة للجمعة)؛ سنن ابن ماجة ٢/١١٨٧ - ١١٨٨ (كتاب اللباس، باب كراهية لبس الحرير)، الموطأ ٢/٩١٧ (كتاب اللباس، باب ماجاء في لبس الثياب)؛ المسند (ط المعارف) ٦/٣٢٣.

المال؟ قلت: من كل ما أتى الله من الإبل والشاء. قال: **فلتر نعمة الله وكرامته عليك**»[1].

وفي السنن أيضًا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب أن يُرَى أثر نعمته على عبده**»[2] لكن هذا الظهور لنعمة الله ومافي ذلك من شكره. والله يحب أن يُشكر، وذلك لمحبته الجمال.

وهذا الحديث قد ضل قوم بما تأوّلوه عليه، وآخرون رأوه معارضة لغيره من النصوص ولم يهتدوا للجمع.

فالأولون: قد يقولون: كل مصنوع الرب جميل، لقوله: ﴿**الَّذي أحسن كل شيء خلقه**﴾. [سورة السجدة: ٧]. فنُحب كل شيء. وقد يستدلون بقول بعض المشايخ: «المحبة نار تحرق في القلب كل ماسوى مراد المحبوب»، والمخلوقات كلها مراده، وهو لايقوله قائلهم. فصرَّح بإطلاق الجمال، وأقل مايصيب هؤلاء أنهم يتركون الغَيْرة لله، والنهي عن المنكر، والبغض في الله، والجهاد في سبيله، وإقامة حدوده.

وهم في ذلك متناقضون، إذ لايتمكنون من الرضا بكل موجود. فإن المنكرات هي أمور مضرة لهم ولغيرهم، ويبقى أحدهم مع طبعه وذوقه وهواه، ينكر مايكره ذوقه دون مالايكره ذوقه، وينسلخون عن دين الله، وربما دخل أحدهم في الاتحاد

---

(١) الحديث عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه رضي الله عنه في سنن أبي داود ٤/٧٤ (كتاب اللباس، باب في غسل الثوب وفي الخُلقان)، سنن النسائي ١٥٧/٨ (كتاب الزينة. باب الجلاجل)؛ المسند (ط. الحلبي) ٤٧٣/٣. وهو حديث صحيح.

(٢) الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في: سنن الترمذي ٤/٢٠٦ - ٢٠٧ (كتاب الأدب، باب ماجاء أن الله يحب أن يُرى أثر نعمته على عبده) وقال الترمذي: «وفي الباب عن أبي الأحوص عن أبيه وعمران بن حصين وابن مسعود. هذا حديث حسن. والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في المسند (ط. المعارف) ١٥/٢٤٠ - ٢٤١، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه في المسند (ط. الحلبي) ٤/٤٣٨.

والحلول المطلق، ومنهم من يخصّ الحلول أو الاتحاد ببعض المخلوقات، كالمسيح أو علي بن أبي طالب أو غيرهما من المشايخ والملوك والمردان، فيقولون بحلوله في الصور الجميلة، ويعبدونها.

ومنهم من لايرى ذلك، لكن يتدين بحب الصور الجميلة، من النساء الأجانب والمردان وغير ذلك، ويرى هذا من الجمال الذي يحبه الله، ويحبه هو، ويلبس المحبة الطبيعية المحرَّمة بالمحبة الدينية، ويجعل ماحرَّمه [الله] مما يقرِّب إليه: **﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء﴾** [سورة الأعراف، الآية: ٢٨].

والآخرون قالوا: ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[١]. ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك، لكن نظر المحبة.

وقد قال تعالى عن المنافقين: **﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم يقولون تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة﴾**. [سورة المنافقون، الآية: ٤].

وقال تعالى: **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثًا ورئيا﴾**. [سورة مريم، الآية: ٧٤]. والأثاث: المال من اللباس ونحوه، والرئي المنظر فأخبر أن الذين أهلكهم قبلهم كانوا أحسن صورًا وأموالاً، لتتبين أن ذلك لاينفع عنده ولايُعبأ به.

وقال النبي ﷺ: «**لافضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود**

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤) في البر والصلة: باب تحريم ظلم المسلم وخذله، وأخرجه أحمد (٢/٢٨٥ و٥٣٩) وابن ماجة (٤١٤٣) في الزهد: باب القناعة.

إلّا بالتقوى»(١) وفي السنن عنه أنه قال: «البذاذة من الإيمان»(٢).

وأيضًا فقد حرَّم علينا [من] لباس الحرير والذهب، وآنية الذهب والفضة: ماهو أعظم الجمال في الدنيا، وحرَّم الله الفخر والخيلاء، واللباس الذي فيه الفخر والخيلاء، كإطالة الثياب.

حتى ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لاينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بطرًا» (٣).

وفي الصحيح عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»(٤).

---

(١) في المسند (ط. الحلبي) ٥/٤١١ عن أبي نضرة حدَّثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: ياأيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولالعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولاأسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ. . . الحديث.

(٢) في: سنن أبي داود ٤/١٠٦ ـ ١٠٧ (كتاب الترجل، الباب الأول) عن أبي أمامة قال: ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يومًا عنده الدنيا فقال رسول الله ﷺ: «ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان ـ يعنى التقحل. وقال أبو داود: هو أبو أمامة بن ثعلبة الأنصاري. والحديث عن عبدالله بن أبي أمامة الحارثي عن أبيه في سنن ابن ماجة ٢/١٣٧٩ (كتاب الزهد، باب من لايؤبه له) وفي آخره: قال: البذاذة: القشافة، يعني: التقشف. وانظر السلسلة. الصحيحة للألباني رقم ٣٤١ وصحيح الجامع الصغير (رقم ٢٨٧٦).

(٣) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ٧/١٤١ (كتاب اللباس، باب من جرَّ ثوبه من الخيلاء)، مسلم ٣/١٦٥٣ (كتاب اللباس، باب تحريم جر الثوب خيلاء)، المسند (ط. الحلبي) ٣/٥.

(٤) الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في: البخاري ٥/٦ (كتاب أصحاب النبي، باب حدثنا الحميدي). ٧/١٤١ (كتاب اللباس، باب من جرَّ إزاره من غير خيلاء)، مسلم ٣/١٦٥١ ـ ١٦٥٣ (كتاب اللباس، باب تحريم جر الثوب خيلاء)، سنن أبي داود ٤/٨١ (كتاب اللباس، باب ماجاء في إسبال الإزار)، سنن الترمذي ٢/١٣٧ (كتاب اللباس، باب ماجاء في كراهية جر الإزار)، سنن ابن ماجة ٢/١١٨١ (كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من =

وفي الصحيح أيضًا قال: «**بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»[1].

وقد قال تعالى في حق قارون: ﴿**فخرج على قومه في زينته**﴾. [سورة القصص، الآية: ٧٩]. قالوا: ثياب الأرجوان[2]

ولهذا ثبت في الصحيح عن عبدالله بن عمرو قال: رآني رسول الله ﷺ وعليَّ ثوبين معصفرين، فقال: «**إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها. قلت: أغسلها؟ قال: احرقها**»[3].

ولهذا كرَّه/ العلماء المحققون الأحمر المشبع حمرة، كما جاء النهي عن الميثرة الحمراء[4]. وقال عمر بن الخطاب: دعوا هذه الرايات للنساء. وقد بسطنا القول في هذه المسألة في موضعها.

= الخيلاء)، والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في المسند (ط. المعارف) ١٠٨/٧، ٣٨٩٢٦٣ وهو عن أبي سعيد الخدري وابن عمر رضي الله عنهم في المسند (ط. الحلبي) ٣٩/٣ ـ ٤٠).

(١) الحديث عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما في: البخاري ١٧٧/٤ (كتاب الأنبياء، باب حدثنا أبو اليمان). ١٤١/٧ (كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء).

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير» ٢٤٣/٦ «قال الحسن: في ثياب حمر وصفر، وقال عكرمة: في ثياب معصفرة. وقال وهب بن منبه: خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أرجوان.. إلخ.

(٣) جمع ابن تيمية بين حديثين رواهما مسلم في صحيحه ١٦٤٧/٣ (كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر) عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال في أولهما: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال: «إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها». وفي الثاني: فقال النبي ﷺ: «أأمك أمرتك بهذا؟» قلت: أغسلهما؟ بل احرقهما».

(٤) في الأصل: المسرة الحمراء. وفي سنن النسائي ١٩٤/٧ (كتاب الزينة، باب النهي عن الجلوس على المياثر من الأرجوان) عن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: قل اللهم سددني واهدني. ونهاني عن الجلوس عن المياثر. والمياثر قسيٌّ كانت تصنعه النساء لبعولتهن على الرجل كالقطائف من الأرجوان، وانظر زاد المعاد لابن القيم فله كلام حسن في هذه المسألة

وأيضا فقد قال الله تعالى: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم[1] ويحفظوا فروجهم**﴾ إلى قوله: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون**﴾. [سورة النور، الآية: ٣٠ - ٣١].

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة: «**العينان تزنيان، وزناهما النظر**»[2].

وفي الصحيح عن جرير بن عبدالله قال: سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: «**اصرف بصرك**»[3].

وفي السنن أنه قال لعليّ: «**ياعلي: لاتتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة**»[4].

وقد قال تعالى: ﴿**ولاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة**

(١) في الأصل حرفت الآية إلى: من أصواتهم.

(٢) رواه البخاري ١١/ في الاستئذان: باب زنا الجوارح دون الفرج، وفي القدر ومسلم (٢٦٥٧) في القدر: باب قدر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره، ورواه أحمد (١/١٢٥، ١٢٦) وأبو داود.

(٣) في الأصل: اضرب وبصرك، وهو تحريف، والحديث عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه في: مسلم ٣/١٦٩٩ (كتاب الآداب، باب نظر الفجأة) ونصه: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة، فأمرني أن أصرف بصري. والحديث في: سنن الترمذي ٤/١٩١ (كتاب الاستئذان والآداب، باب ماجاء في نظر الفجاءة). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، سنن أبي داود ٢/ ٣٣٠ (كتاب النكاح، باب مايؤمر به من غض البصر) وفيه: «اصرف بصرك» وهي الرواية التي معنا؛ سنن الدارمي ٢/٢٧٨ (كتاب الاستئذان باب في نظر الفجاءة).

(٤) الحديث عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه في: سنن أبي داود ٢/ ٣٣٠ - ٣٣١ (كتاب النكاح، باب مايؤمر به من غض البصر) وأوله: «ياعلي لاتتبع.. الحديث. وهو عنه أيضًا في: سنن الترمذي ٤/١٩١ (كتاب الاستئذان والآداب، باب ماجاء في نظر الفجاءة)، المسند (ط. الحلبي) ٥/٣٥١ - ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٧. والحديث عن علي رضي الله عنه في: سنن الدارمي ٢/٢٩٨ (كتاب الرقاق، باب في حفظ السمع).

الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾. [سورة طه، الآية: ١٣١].

وقال: **﴿ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين﴾**. [سورة الحجر: ٨٨].

وقال: **﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب* قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾**. [سورة آل عمران، الآية: ١٣ - ١٥].

وقد قال مع ذمه لمذامه من هذه الزينة: **﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**. [سورة الأعراف، الآية: ٣٢].

فنقول: اعلم أن مايصفه به النبي ﷺ من محبة لأجناس المحبوبة من الأعيان والصفات والأفعال، ومايبغضه من ذلك، هو مثل مايأمر به من الأفعال، وينهى عنه من ذلك، فإن الحب والبغض هما أصل الأمر والنهي، وذلك نظير مايعده على الأعمال الحسنة من الثواب، ويتوعد به على الأعمال السيئة من العقاب.

فأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وحبه وبغضه، وثوابه وعقابه: كل ذلك من جنس واحد. والنصوص النبوية تأتي مطلقة عامة من الجانبين. فتتعارض في بعض الأعيان والأفعال التي تندرج في نصوص المدح والذم، والحب والبغض، والأمر والنهي، والوعد والوعيد. وقد بسطنا الكلام على مايتعلق بهذه القاعدة في غير موضع، لتعلقها بأصول الدين وفروعه.

فإن من أكبر المسائل التي تتبعها مسألة الأسماء والأحكام في فسّاق أهل الملة، [وهل] يجتمع في حق الشخص الواحد الثواب والعقاب، كما يقوله أهل السنة والجماعة، أم لايجتمع ذلك؟ وهل يكون الشيء الواحد محبوبًا من وجه مبغوضا

من وجه، محمودًا من وجه مذمومًا من وجه، كما يقوله جمهور الخوارج: والمعتزلة؟ وهل يكون الفعل الواحد مأمور به من وجه منهيًا عنه من وجه؟.

وقد تنازع في ذلك أهل العلم من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم، والتعارض بين النصوص إنما هو لتعارض المتعارض المقتضي للحمد والذم من الصفات القائمة بذاته [تعالى]. ولهذا كان لهذا الجنس موجبًا للكفر أو الفتنة، فأول مسألة فرَّقت بين الأمة مسألة الفاسق المليّ، فأدرجته الخوارج في نصوص الوعيد والخلود في النار وحكموا بكفره، ووافقتهم المعتزلة على دخوله في نصوص الوعيد وخلوده في النار، لكن لم يحكموا بكفره، فلو كان الشيء خيرًا محضاً لم يوجب فرقة، ولو كان شرًا محضًا لم يخف أمره، لكن لاجتماع الأمرين فيه أوجب الفتنة.

وكذلك مسألة القدر، التي هي من جملة فروع هذا الأصل، فإنه اجتمع في الأفعال الواقعة التي نهى الله عنها أنها مرادة له لكونها الموجودات، وأنها غير محبوبة له/ ولامرضية، بل ممقوتة مبغوضة لكونها من المنهيات.

فقال طوائف من أهل الكلام: الإرادة والمحبة والرضا واحدة، أو متلازمة. ثم قالت القدرية: والله لم يحب هذه الأفعال ولم يرضها، فلم يردها، فأثبتوا وجود الكائنات بدون مشيئة.

ولهذا لما قال غيلان القدري لربيعة بن عبدالرحمن: ياربيعة نشدتك بالله أترى الله يحب أن يُعصى؟ فقال له ربيعة: أفترى الله يُعصى قسرًا؟ فكأنه ألقمه حجرًا[1]. يقول له: نزَّهته عن محبة العاصي فسلبته الإرادة والقدرة، وجعلته مقهورًا مقسورًا.

وقال من عارض القدرية: بل كل ماأراده أحبه ورضيه. ولزمهم أن يكون الكفر والفسوق والعصيان محبوبًا لله مرضيًا.

وقالوا أيضًا: يأمر بما لايريده، وكل ماأمر به من الحسنات فإنه لم يرده، وربما قالوا: ولم يحبه ولم يرضه إلا إذا وُجد، ولكن أمر به وطلبه.

---

(١) انظر كتابنا «الأجوبة المسكتة» فهذا الجواب يعتبر جواب ألمعي ذكي حاضر البديهة.

فقيل لهم: هل يكون طلب وإرادة واستدعاء بلا إرادة ولامحبة ولا رضا؟ هذا جمع بين النقيضين، فتحيروا.

فأولئك سلبوا الرب خلقه وقدرته وإرادته، وهؤلاء سلبوه محبته ورضاه وإرادته الدينية، ومايصحبه أمره ونهيه من ذلك. فكما أن الأولين لم يثبتوا أن الشخص الواحد يكون مثابًا معاقبًا، بل إما مثاب وإما معاقب، فهؤلاء لم يبيّنوا أن الفعل الواحد يكون مرادًا من وجه دون وجه، مرادًا غير محبوب، بل إما مراد محبوب، وإما غير مراد ولامحبوب، ولم يجعلوا الإرادة إلا نوعًا واحدًا. والتحقيق أنه يكون مرادًا غير محبوب ولامرضيّ، ويكون مرادًا من وجه دون وجه، ويكون محبوبًا مرضيًا غير مراد الوقوع.

والإرادة نوعان: إرادة دينية، وهي المقارنةُ الأمرَ والنهي، والحب والبغض، والرضا والغضب.

وإرادة كونية، وهي المقارنة للقضاء والقدر، والخلق والقدرة.

وكما تفرَّقوا في صفات الخالق تفرقوا في صفات المخلوق. فأولئك لم يثبتوا له إلا قدرة واحدة تكون قبل الفعل، وهؤلاء لم يثبتوا له إلا قدرة واحدة تكون مع الفعل.

أولئك نفوا القدرة الكونية التي بها يكون الفعل، وهؤلاء نفوا القدرة الدينية التي بها يأمر الله العبد وينهاه.

وهذا من أصول تفرّقهم في مسألة تكليف مالايُطاق. وانقسموا إلى: قدرية مجوسية تثبت الأمر والنهي، وتنفي القضاء والقدر. وإلى قدرية مشركية شرٌّ منهم تثبت القضاء والقدر، وتكذّب بالأمر والنهي، أو ببعض ذلك.

وإلى: قدرية إبليسية تصدق بالأمرين، لكن ترى ذلك تناقضًا مخالفًا للحق والحكمة.

وهذا شأن عامة ماتتعارض فيه الأسباب والدلائل. تجد فريقًا يقولون بهذا

دون هذا، وفـريقًا بالعكس، وفريقًا رأوا الأمرين واعتقدوا تناقضهما، فصاروا متحيرين أو معرضين عن التصديق بهما جميعًا، أو متناقضين مع هذا تارة، ومع هذا تارةً.

وهـذا تجده في مسـائـل الكلام والاعتقادات، ومسائل الإرادة والعبادات، كمسألة السماع الصوتي، ومسألة الكلام، ومسائل الصفات، وكلام الله، وغير ذلك من المسائل.

وجماع القول في ذلك: أن كل أمرين تعارضًا فلابد أن يكون أحدهما راجحًا، أو يكـون متكـافئـين، فيُحكم بينهـما بحسب الـرجحـان، وبحسب التكافؤ، فالعملان والعاملان إذا امتاز كل منهما بصفات، فإن ترجح أحدهما فهو الراجح، وإن تكافئا سوى بينهما في الفضل والدرجة، وكذلك أسباب المصالح والمفاسد، وكذلك الأدلة، بأنه يعطى كل دليل حقه، ولايجوز أن تتكافأ الأدلة في نفس الأمر عند الجمهور، لكن تتكافأ في نظر الناظر، وأما كون الشيء الواحد من الوجه الواحد ثابتًا منتفيًا، فهذا لايقوله عاقل.

وأصل هذا كله العدل بالتسوية بين المتماثلين. فإن الله تعالى يقول: ﴿**لقد أرسلنـا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾. [سورة الحديد، الآية: ٢٥]. وقد بسطنا القول في ذلك، وبيَّنا أن العدل جماع الدين والحق والخير كله في غير موضع.

والعدل الحقيقي قد يكون متعذرًا: إما عمله، وإما لعمل به. لكن التماثل من كل وجه غير ممكن أو غير معلوم، فيكون الواجب في مثل ذلك ماكان أشبه بالعدل وأقرب إليه، وهي الطريقة المثلى.

وقال سبحانه: ﴿**وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسًا إلا وسعها**﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١٥٢].

وعلى هذا فالحق الموجود: وهو الثابت الذي يقابله المنفي. والحق المقصود:

وهو المأمور به المحبوب، الذي يقابله المنهي عنه المبغوض: ثلاثة أقسام:

فإنها في حق المقصود: إما أمر ترجحت المصلحة المحبوبة فيه، وهذا يؤمر به.

وإما أمر ترجحت فيه المفسدة المكروهة، فهذا يُنهى عنه.

وإما أمر استوى فيه هذا [وهذا]، فهذا لايؤمر به ولايُنهى عنه، ولايترجح فيه الحب، ولايترجح فيه البغض، بل يكون عفواً.

ومادون هذا - إن كان مثل هذا موجود - فإن الناس يتنازعون في وجوده. فقيل: هو موجود. وقيل: بل هو يقدر في الفعل لاوجود له، بل لابد من الرجحان، كما قيل مثل ذلك في تكافأ الأدلة.

وعلى هذا فالأمر الذي ترجحت فيه المصلحة، وأُمر به. غلب فيه جانب المحبة، مع أن الذي فيه المفسدة، مبغض، لكنه مراد. فهو مراد بغيض. والأمر الذي ترجح فيه جانب المصلحة محبوب، لكنه مراد الترك محبوب، فهو محبوب في نفسه، لكن لملازمته لما هو بغيض، وجب أن يُراد تركه تبعًا لكراهةٍ لازمة، فإنه بغَّض اللازم ونفى المنفيَّ الملزوم.

فحاصله أن المراد إرادة جازمة هو أحد الأمرين: إما الفعل، وإما الترك. والأول: هو المأمور به. والثاني: هو المنهي عنه. لكن مع هذا فقد/ يشتمل المفعول على بغيض محتمل، ويشتمل المتروك على حبيب مرفوض، فهذا أصل نافع.

فهذا في الفعل الواحد. وأما الفاعل الواحد الذي يعمل الحسنة والسيئة معًا، وهو وإن كان التفريق بينهما ممكنًا، لكنه هو يعلمهما جميعًا أو يتركهما جميعا، لكون محبته لأحدهما مستلزمة للأخرى لمحبته، وبغضه لأحدهما مستلزمة لبغضه للأخرى. فصار لايؤمر إلا بالحسن من الفعلين، ولاينهى إلا عن السيء منهما، وإن لزم ترك الحسنة لاينبغي أن يأمره في مثل هذا بالحسنة المرجوحة، فإنه يكون أمرًا بالسيئة، ولاينهاه عن السيئة المرجوحة، فإنه يكون نهيًا عن الحسنة الراجحة،

وهكذا المعين يعين على الحسنة الراجحة، وعلى ترك السيئة المرجوحة.

وهـذا أصل عظيم تدخل فيه أمور عظيمة، مثل الطاعة لأئمة الجور وترك الخروج عليهم، وغير ذلك من المسائل الشرعية. وهكذا حكم الطائفة المشتملة أفعـالهـا على حسنات وسيئات، بمنزلة الفاعل في ذلك، وبما ذكرناه في الفعل الـواحد والفاعل الواحد ـ تظهر أمور كثيرة: إما الحق الموجود، وإما أن يكون الشيء في نفسه ثابتًا ومنتفيًا، لكن كثيرًا ما تحصل المقابلة بين إثبات عام، ونفى عام، ويكون الحق في التفصيل، وهو ثبوت بعض ذلك العام وانتفاء بعضه، وهذا هو الغالب على المسائل الكبار التي يتنازع فيها أحزاب الكلام والفلسفة ونحوهم.

والدليل إما أن يكون دليلًا معلومًا، فهذا لايكون إلا حقًا، لكن كثيرًا مايظن الإنسان أن الشيء معلوم ولايكون معلومًا، وحينئذ فإذا ظن ظان تعارض الأدلة المعلومة كان غالطًا في تعارضها، بل يكون أحد الأمرين لازمًا ـ إما كلها أو بعضها ـ غير معلوم. وإمـا أن موجب الـدليل حق من غير تعارض، وإن ظنه الظان تعارضًا، فالحق الموجود لاينافي الحق الموجود، بل يكون كل منهما موجودًا بخلاف الحق المقصود، فإنه قد يُقصد/ الضدان لما في كل منهما من المصالح المقصودة، لكن لايوجـد الضـدان. وإن كان الدليل مغلبًا للظن اعتقد فيه موجبة، وإذا تعارضت هذه [الأدلة] رجح راجحها وسوى بين متكافيها.

إذا تقرر ذلك فنقول: قول النبى، ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»، كقوله للذى علَّمه الدعاء: «**اللهم إنَّك عفو تحب العفو فاعف عنى**»[1]، وقوله تعالى:

---

(١) الحديث عن عائشة رضي الله عنها في: سنن الترمذي ١٩٥/٥ (كتاب الدعوات، باب منه) وأوله: قلت يارسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة ليلةُ القدر ماأقول فيها؟.. الحديث...، سنن ابن ماجة ١٢٦٥/٢ (كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية)، المسند (ط. الحلبي) ١٧١/٦ وأماكن أخرى بالمسند وانظر كتابنا سطوع البدر بفضائل ليلة القدر.

﴿**إنَّ الله يُحِبُّ التوابين ويحب المتطهرين**﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢٢٢]. وإن الله نظيف يحب النظافة.

فهو سبحانه إذا كان يحب العفو لم يوجب هذا ألَّا يكون في بعض أنواع العفو من المعارض الراجح مايعارض [ما] فيه من محبة العفو، ولولا ذلك لكان ينبغي أن يعفو عن كل محرم، فلا يعاقب مشركًا ولا فاجرًا، لافي الدنيا ولا في الآخرة، وهـذا خلاف الواقع، ولوجب أن يستحب لنا العفو عن كل كافر وفاجر، فلا نعاقب أحدًا على شيء، وهذا خلاف ماأمرنا به، وخلاف ماهو صلاح لنا، ونافع في الدنيا والآخرة.

وكذلك محبته للمتطهرين ومحبته للنظافة، لاتمنع حصول المعارض الراجح، مثل أن يكون الماء محتاجًا إليه للعطش، فمحبته لسقي العطشان راجحة على محبته للطهارة والنظافة.

وكذلك سائر مايتزاحم من الواجبات والمستحبات، فإنها جميعها محبوبة لله، وعند التزاحم يقدم أحبها إلى الله. والتقرب إليه بالفرائض أحب إليه من التقرب إليه بالنوافل، وبعض الواجبات والمستحبات أحب إليه من بعض.

وكذلك إذا تعارض المأمور والمحظور، فقد تعارض حبيبه وبغيضه، فيقدِّم أعظمهما في ذلك، فإن كان محبته لهذا أعظم من بغضه لهذا أقدم، وإن كان بغضه لهذا أعظم من حبه لهذا قدم.

كما قال تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢١٩]. وعلى هذا استقرت/ الشريعة بترجيح خير الخيرين، ودفع شر الشرين، وترجيح الراجح من الخير والشر المجتمعين.

والله سبحانه يحب صفات الكمال، مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك.

ففي صحيح مسلم[1] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**»[1]. وفي الصحيح عنه أنه قال: «**لايرحم الله من لايرحم الناس**»[2].

وفي الصحيح أيضًا عنه: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[3].

وفي السنن حديث ثابت عنه: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[4].

ومع هذا فقد قال تعالى في حد الزاني والزانية: ﴿**ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾. [سورة النور، الآية: ٢].

وقال تعالى: ﴿**ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾. [سورة التوبة، الآية: ٧٣].

(١) (٢٠٥٢/٤) كتاب القدر باب فى الأمر بالقوة وترك العجز ورواه ابن ماجة (٣١/١) المقدمة باب في القدر.

(٢) الحديث عن جرير عن عبدالله رضي الله عنه في: البخاري ١١٥/٩ (كتاب التوحيد، باب فول الله تبارك وتعالى: ﴿قل ادعو الله...﴾. مسلم ١٨٠٩/٤ (كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ...﴾، سنن الترمذي ٢١٦/٣ (كتاب البر، باب ماجاء في رحمة الناس)، المسند (ط. الحلبي) ٣٥٨/٤، ٣٦٠، ٣٦٦. والحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في: سنن الترمذي ١٨/٤ (كتاب الزهد، باب ماجاء فى الرياء والسمعة)، المسند (ط. الحلبى) ٤٠/٣.

(٣) هذا جزء من حديث طويل عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما في: البخاري ٧٩/٢ (كتاب الجنائز باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله) وأوله: أرسلت ابنة النبي ﷺ) أن ابنًا لي قبض... الحديث. وهو في: مسلم ٦٣٥/٢ - ٦٣٦ (كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت)، سنن النسائي ١٩/٤ (كتاب الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر..)، سنن ابن ماجة ٥٠٦/١ (كتاب الجنائز، باب ماجاء فى البكاء على الميت)، المسند (ط. الحلبى) ٢٠٤/٥، ٢٠٥ - ٢٠٦، ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٤) الحديث عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما في: سنن أبي داود (كتاب الأدب، باب في الرحمة)، سنن الترمذي ٢١٧/٣ (كتاب البر، باب ماجاء في رحمة الناس). وقال الترمذي: «هذا الحديث حسن صحيح».

وهذا في الحقيقة من رحمة الله بعباده، فإن الله إنما أرسل محمدًا رحمة للعالمين، وهـو سبحـانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها. لكن قد تكون الرحمة المطلوبة لاتحصل إلا بنوع من ألم وشدَّة تلحق بعض النفوس، كما ورد في الأثر: إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه. يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟».

وكذلك كون الفعل عفواً وصفٌ يقتضي محبة الله له، فإذا عارضه ماهو أحب إلى الله منه، أو اشتمل على بغض الله له أعظم من محبته لذلك العفو قُدِّم الراجح.

فكون الشيء جميلاً يقتضي محبة الله له، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه، إذ كل موجود فلابد فيه من وجه الحكمة التي خلقه الله لها، ومن ذلك الوجه يكون حسنًا محبوبًا، وإن كان من وجه آخر يكون مستلزمًا شيئًا يحبه الله ويرضاه، أعظم مما فيه نفسه من البغض.

فهذا موجود فينا، فقد يفعل الشخص الفعل: كشرب الدواء الكريه الذي بغضـه له أعـظم من حبه له، وهذا لَّما تضمن ماهو محبته له أعظم من بغضه للدواء، أراده وشـاءه وفعله، فأراد بالإرادة الجازمة المقارنة للقدرة فعلاً فيه مما يبغضه أكثر مما يحبه، لكونه مستلزمًا لدفع ماهو إليه أبغض، ولحصول مامحبته له أعظم من بغضه. لهذا فإن بغضه للمرض ومحبته للعافية أعظم من بغضه للدواء.

فالأعيان التي نبغضهـا: كالشياطـين والكـافـرين، وكـذلـك الأفعال التي نبغضها: من الكفر والفسوق والعصيان، خلقها وأراد وجودها لما تستلزمه من الحكمة التي يحبها، ولما في وجودها من دفع ماهو إليه أبغض، فهي مرادة له، وهي مبغضة له مسخوطة، كما بيَّنا هذا في غير هذا الموضع.

وأما الجمال الخاص، فهو سبحانه جميل يحب الجمال. والجمال الذي للخُلُق: من العلم والإيمان والتقـوى، أعـظم من الجمال الذي للخَلْق. وهو الصورة الظاهرة.

وكذلك الجميل من اللباس الظاهر، فلباس التقوى أعظم وأكمل . وهو يحب الجمال [الذي] للباس التقوى، أعظم مما يحب الجمال الذي للباس الرياش، ويحب الجمال الذي للخُلُق، أعظم مما يحب الجمال الذي للخَلْق .

كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا»[1].

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ماحاك في نفسك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**»[2].

وفي السنن عنه أنه قال: «**أثقل مايوضع في الميزان الخلق الحسن**»[3].

ورُوي عنه أنه قال لأم سلمة: «**ياأم سلمة ذهب حُسْن الخلق بخير الدنيا والآخرة**»[4].

---

(١) الحديث عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما في: سنن أبي داود ٤/٣٠٤ (كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه)، سنن الترمذي ٢/٤١٥ (كتاب الرضاع، باب ماجاء في حق المرأة على زوجها)، ٤/١٢٢ (كتاب الإيمان، باب في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان)؛ سنن الدارمي ٢/٢٢٣ (كتاب الرقاق، باب في حسن الخلق)، المسند (ط. المعارف) ١٣/١٣٣، (ط. الحلبي) ٢/٤٧٢، ٥٢٧، ٦/٤٧، ٩٩.

(٢) الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه في: مسلم ٤/١٩٨٠ (كتاب البر، باب تفسير البر والإثم)؛ سنن الترمذي (٤/٢٣ - ٢٤ (كتاب الزهد، باب ماجاء في البر والإثم)؛ سنن الدارمي ٢/٣٢٢ (كتاب الرقاق، باب في البر والإثم)؛ المسند (ط. الحلبي ٤/١٨٢).

(٣) هذا جزء من حديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو في: سنن الترمذي ٣/٢٤٤ (كتاب البر، باب ماجاء في حسن الخلق) وأوله: ماشيء أثقل في ميزان المؤمن... الحديث، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وهو في: سنن أبي داود ٤/٣٥٠ (كتاب الأدب، باب في حسن الخلق)، المسند (ط. الحلبي) ٦/٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١.

(٤) الحديث عن أنس رضي الله عنه في: مجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٣ - ٢٤ «عن أنس قال: قالت أم حبيبة: يارسول الله المرأة يكون لها زوجان، ثم تموت فتدخل الجنة هي وزوجاها، لأيهما تكون، للأول أو للآخر؟ قال: تخير أحسنهما خلقًا كان معها في الدنيا يكون زوجها في الجنة، ياأم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة. رواه الطبراني والبزار باختصار، وفيه: عبد

ومن المعلوم أن أحب خلقه إليه المؤمنون، فإذا كان أكملهم إيمانا أحسنهم خُلُقًا، كان أعظمهم محبة له أحسنهم خُلُقًا. والخلق الدين. كما قال الله تعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾. [سورة القلم، الآية: ٤]. قال ابن عباس: على دين عظيم[1]. وبذلك فسره سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل/ وغيرهما، كما قد بيناه في غير هذا الموضع[2].

وهو سبحانه يبغض الفواحش ولايحبها ولايأمر بها. كما قال تعالى: ﴿**إنَّ الله لايأمر بالفحشاء**﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٢٨].

فإذا كان الجمال متضمناً لعدم ماهو أحب إليه، أو لوجود ماهو أبغض له، لزم من ذلك فوات مافي الجمال المحبوب، فإذا كان في الجمال الثياب بطر وفخر وخيلاء وسرف، فهو سبحانه لايحب كل مختال فخور. وقال [تعالى][2]: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا**﴾. [سورة الفرقان، الآية: ٦٧]. بل هو يبغض البطر الفخور المختال والمسرف. وقال: ﴿**إن المسرفين هم أصحاب النار**﴾. [سورة غافر، الآية: ٤٣]. فلهذا قال [ﷺ]: «**لاينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره خيلاء**

= بن إسحاق وهو متروك، وقد رضيه أبو حاتم، وهو أسوأ أهل الإسناد حالاً، وقد تقدمت لهذا الحديث طرق في: النكاح».

وفي «الجامع الكبير» نسب السيوطي الحديث إلى ام سلمة رضي الله عنها وقال بعده: «طب (الطبراني في المعجم الكبير) والخطيب عن أم سلمة».

(١) في «تفسير ابن كثير» ٨/٢١٤ (ط. دار الشعب): «عن ابن عباس: أي وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدي والربيع بن أنس والضحَّاك وابن زيد». وكذا قال ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير» ٨/٤٢٨: «فيه ثلاثة أقوال: أحدها: دين الإسلام، قاله ابن عباس».

(٢) في تفسير ابن تيمية لسورة القلم (مجموع فتاوى الرياض ١٦/٦١): «وإنك لعلى خلق عظيم. قال ابن عباس: على دين عظيم. قواله ابن عيينة، وأخذه أحمد عن ابن عيينة، فإن الدين والعادة والخلق ألفاظ متقاربة المعنى في الذات وإن تنوعت في الصفات... إلخ».

وبطرًا»[1]. فإنه يبغضه فلا ينظر إليه وإن كان فيه جمال، فإن ذلك غرق في جانب مايبغضه الله من الخيلاء والبطر.

وكذلك الحرير فيه من السرف والفخر والخيلاء مايبغضه الله، وينافي التقوى التي هي محبوب الله. كما ثبت في الصحيحين عنه أنه نزع فروج الحرير وقال: **«لاينبغي هذا للمتقين»**[2].

وكذلك سائر ماحرَّمه الله وكرهه مما فيه جمال، فإن ذلك لاشتماله على مكروه ألحق على ما [فيه مما يبغضه الله] أعظم مما فيه من محبوبه، ولتفويته ماهو أحب إليه منه.

وكذلك الصور الجميلة من الرجال والنساء، فإن أحدهم إذا كان خلقه سيئًا بأن يكون فاجرًا أو كافرًا، معلنًا أو منافقًا، كان البغض أو المقت لخلقه ودينه مستعليًا على مافيه من الجمال.

كما قال تعالى عن المنافقين: **﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾**. [سورة المنافقون، الآية: ٤].

وقال: **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾**. [سورة البقرة، الآية: ٢٠٤]. فهؤلاء إنما أعجبه صورهم الظاهرة للبصر، وأقوالهم الظاهرة

(١) رواه البخاري (١٠/٢١٩) ومسلم (٢٠٨٧) من حديث أبو هريرة

(٢) الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه في: البخاري ١/٨٠ (كتاب الصلاة، باب من صلّى في فرُّوج حرير ثم نزعه). ولفظ الحديث: «أهدى إلى النبي ﷺ فرُّوج حرير فلبسه فصلى فيه، ثم انصرف فنزعه نزعًا شديدًا كالكاره له، وقال: لاينبغي هذا للمتقين». والحديث: في البخاري ٧/١٤٤ (كتاب اللباس، في القباء وفروج جرير)، مسلم٣/١٦٤٦ (كتاب اللباس، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء...)؛ سنن النسائي ٢/٥٦ (كتاب القبلة، باب الصلاة في الحرير)، المسند (ط. الحلبي) ٤/١٤٣، ١٤٩، ١٥٠. وقال النووي في شرحه على مسلم ١٤/٥٢: «الفروج بفتح الفاء وضم الراء المشددة، هذا هو الصحيح المشهور في ضبطه... قالوا: وهو قباء له شق من خلفه، وهذا اللبس المذكور في هذا الحديث كان قبل تحريم الحرير على الرجال...»..

للسمع، لما فيه من الأمر المعجب، لكن لما كانت حقائق أخلاقهم - التي هي أملك بهم - مشتملة على ماهو من أبغض الأشياء وأمقتها إليه، لم ينفعهم حسن الصورة والكلام.

وقال النبي ﷺ: «**إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[1].

وكذلك المرأة والصبي إذا كان فاجرًا، فإن ذلك يفوِّت حسن الخلق والتقوى، التي هي أحب إلى الله من ذلك، ويوجب بغض الله للفاحشة ولصاحبها ولسيء الخلق ومقته وغضبه عليه، ماهو أعظم بكثير مما فيه من الجمال المقتضي للمحبة.

وكذلك القوة وإن كانت من صفات الكمال التي يحبها الله.

فإذا كانت الإعانة على الكفر والفجور، الذي بغض الله له ومقته عليه، وتفويته لما يحبه من الإيمان والعمل الصالح، أعظم بكثير من مجرد ما في القوة من الأمر المحبوب، ترجح جانب البغض بقدر ذلك.

فإذا كانت القوة في الإيمان، كان الأمر كما قال النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»[1]. ومن المعلوم أن الله يحب الحسنات وأهلها ويبغض السيئات وأهلها. فهو يحب كل ماأمر به أمر إيجاب أو أمر استحباب، وكل ماحمده وأثنى [عليه] من الصفات، مثل العلم، والإيمان، والصدق، والعدل، والتقوى، والإحسان، وغير ذلك. ويحب المقسطين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المحسنين، والذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، ويبغض الكفر وأنواعه، والظلم والكذب والفواحش ماظهر منها ومابطن، ولا أحد أغير منه، وكل ماحرمه يبغضه.

فإذا كان مع الجمال - أو غيره مما فيه وجه محبة - ماهو بغيض من الفواحش أو

---

(١) مضى تخريج الحديث من قبل.

الكذب أو الظلم أو غير ذلك، كما ذكره في قوله: ﴿**قل إنما حرَّم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون**﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٣٣]. فإن ذلك يفوِّت ماهو أحب إلى الله من الجمال بكثير ويوجب من مقت الله وبغضه ماهو أعظم بكثير مما لمجرد الجمال من الحب، ويوجب/ النهي عمَّا يوجب هذه السيئات الكثيرة، ويفوت الجمال الأفضل، وهو كمال الخلق وحسنه، ومافي ذلك من الحسنات، وكان مافي ذلك من المبغضات وترك المحبوبات راجحًا على الحب الذي للجمال.

وعلى هذا يجري [الأمر]: على محبة الإنسان للشيء الجميل من الصورة والنظر إليه، ومايدخل في ذلك من قوة الحب والزيادة فيه التي تسمى العشق، فإن ذلك إذا خلا عن المفسدة الراجحة، مثل أن يحب الإنسان امرأته وجاريته حبًا معتدلاً، أو يحب مالافتنة فيه، كحبه للجميل من الدواب والثياب، ويحب ولده وأباه وأمه، ونحو ذلك من محبة الرحم، كنوع من الجمال، الحب المعتدل ـ فهذا حسن.

أما إذا أحب النساء الأجانب أو المردان ونحو ذلك. فهذا الحب متضمن للمحبة الحيوانية، وليس في ذلك مجرد محبة الجمال، والمحبة الحيوانية مما يبغضها الله ويمقتها، وتوابعها منهى [عنها] مع ذلك، سواء كان مع المحبة فعل الفاحشة الكبرى، أو كانت للتمتع بالنظر والسماع وغير ذلك.

فالتمتع مقدمات الوطء، فإن كان الوطء حلالاً حلَّت مقدماته، وإن كان الوطء حرامًا حرمت مقدماته، وإن كان في ذلك رفض للجمال، كما فيه رفض للذة الوطء المحرم، فإن مافي ذلك مما يبغضه الله، ويمقت عليه، أعظم مما في مجرد الجمال من الحب المتضمن، وذلك متضمن لتفويت محاب الله من التقوى والعفاف والإقبال على مصالح الدين والدنيا، أعظم بكثير مما فيها من مجرد حب

الجمال، فلهذا كانت هذه مذمومة منهيًا عنها، حتى حرَّم الشارع النظر في ذلك بلذة وشهوة، وبغير لذة وشهوة، إذا خاف [الناظر] الفتنة، والفتنة مخوفة من النظر إلى الأجنبية الحسنة، والأمرد الحسن في أحد قولي العلماء، الذي يصححه كثير من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما، وهذا قد يختلف باختلاف/ العادات والطبائع.

وأما النظر للحاجة من غير شهوة ولا لذة فيجوز.

ولهـذا لم يأمر الله ولارسول ولا أهل العلم والإيمان بعشق الصور الجميلة، ولاأثنوا على ماكان كذلك، وكذلك العقلاء من جميع الأمم. ولكن طائفة من المتفلسفة والمتصوفة تأمر بذلك وتثني عليه، لما فيه ـ زعموا ـ من إصلاح النفس ورياضتهـا، وتهـذيب الأخلاق، واكتساب الصفات المحمودة: من السماحة، والشجـاعة، والعلم، والفصاحة، والاختيال ونحو ذلك من الأمور، حتى أن طائفة من فلاسفة الروم والفرس ومن اتبعهم من العرب تأمر به، وكذلك طائفة من المتصوفة، حتى يقول أحدهم: ينبغي للمريد أن يتخذ له صورة يجتمع قلبه عليها، ثم ينتقل منها إلى الله. وربما قالوا: إنهم يشهدون الله في تلك الصورة، ويقولون: هذه مظاهر الجمال، ويتأولون قوله ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**» على غير تأويله.

فهؤلاء ـ وأمثالهم ـ ممن يدخل في ذلك [يزعمون أن طريقهم موافق] لطريق العقل والدين والخلق، وإن اندرج في ذلك من الأمور الفاحشة مااندرج.

وهؤلاء لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء**﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٢٨].

لكن العرب الذين كانوا سبب نزول هذه الآية إنما كانت فاحشتهم ـ التي قالوا فيهـا ماقالوا ـ طوافهم بالبيت عراة، لاعتقادهم أن ثيابهم التي عصوا الله فيها لاتصلح أن يعبد الله فيها، فكانوا ينزهون عبادة الله عن ملامسة ثيابهم، فيقعون

في الفاحشة، التي هي كشف عوراتهم.

وأما هؤلاء فأمرهم أجل وأعظم، إذ غاية ماكان أولئك يفعلون طواف الرجال والنساء عراة مختلطين، حتى كانت [المرأة منهم] تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا [منه] فلا أحله

ولم يكن ذلك الاختلاط والاجتماع إلا في عبادة ظاهرة، لايتأتي فيها فعل الفاحشة الكبرى، ولم يقصدوا بالتعري إلا التنزه من لباس الذنوب بزعمهم[1].

فالذين يجتمعون من الرجال والنساء والمردان لسماع المكاء والتصدية، ويطفئون المصابيح حتى لايرى أحدهم الآخر، حتى اجتمعوا على غناء وزنا ومطاعم خبيثة، وجعلوا ذلك عبادة - فهؤلاء شر من أولئك بلا ريب، فإن هؤلاء فتحوا أبواب جهنم.

كما روى أبو هريرة قال: «**سئل رسول الله ﷺ ماأكثر مايدخل الناس النار؟ فقال: الأجوفان: الفم والفرج**». قال الترمذي: حسن صحيح[2].

---

(١) ذكر الطبراني في تفسيره (ط. المعارف) ١٢/ ٣٧٧ - ٣٧٩ الأقوال المختلفة في تفسير آية ٢٨ من سورة الأعراف، وهي موافقة لكلام ابن تيمية هنا، وأورد البيت المذكور هنا، كما ذكر ابن كثيرة في تفسيره (ط. دار الشعب ٣/ ٣٦٨) البيت وماذكره مجاهد في تفسير الآية ثم قال: «قلت: كانت العرب - ماعدا قريش - لايطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لايطوفون في ثياب عصوا الله فيها. وكانت قريش - وهم الحُمْس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوبًا جديدًا، ولا أعاره أحمسي ثوابًا، طاف عريانًا».

(٢) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في: سنن الترمذي ٣/ ٢٤٥ (كتاب البر، باب ماجاء في حسن الخلق) ونصه: عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر مايدخل الناس الجنة، قال: تقوى الله وحسن الخلق. وسئل عن أكثر مايدخل الناس النار، قال: الفم والفرج» قال الترمذي: «هذا حديث صحيح غريب». وجاء الحديث عن أبي هريرة أيضًا في: سنن ابن ماجة ٢/ ١٤١٨ (كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب) إلا أن فيه: «الأجوفان: الفم والفرج»؛ وفي المسند (ط. المعارف) ١٥/ ٣٢، (ط. الحلبي) ٢/ ٣٩٢، ٤٤٢.

وكذلك رُوي عنه أنه قال: «**أخوف ماأخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الفتن**»[٢].

وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**». وفي رواية مسلم: «**حُفّت**» مكان «**حجبت**»[٣].

وإذا كانت النار محجوبة ومحفوفة بالشهوات، لم يُدخل النار إلا بها، وإذا كانت الجنة محجوبة ومحفوفة بالمكاره، لم يُدخل الجنة إلا بها.

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي مابين لحييه ومابين رجليه أضمن له الجنة»[٢].

ومابين لحييه يتناول الكلام والطعام.

---

(١) ورد الحديث عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه في: المسند (ط. الحلبي) ٤/٤٢٠ من طريقين، ولفظ الأول: «إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن». ولفظ الطريق الثاني (وتكرر ٤/٤٢٣) مماثل له إلا أن فيه.. ومضلات الهوى». وروى الهيثمي الحديث في «مجمع الزوائد» ٧/٣٠٥ـ٣٠٦. وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) جاء الحديث بلفظ «حجبت» أحيانًا وبلفظ «حفت» أحيانًا، وجاء مختصرًا في مواضع ومطولاً في مواضع أخرى عن أبي هريرة في مواضع عن أنس في مواضع أخرى في: البخاري ٨/١٠٢ (كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات؛، مسلم ٤/٢١٧٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، الحديثان ١، ٢)؛ سنن أبي داود ٤/٣٢٦ ـ ٣٢٧ (كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار)، سنن الترمذي ٤/٩٧ ـ ٩٨ (كتاب صفة الجنة، باب ماجاء: حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)؛ المسند (ط. المعارف) ١٦/٢٦٥ ـ ٢٦٦، ١٧/٣٧. وجاء الحديث في سنن النسائي والدارمي وفي الموطأ والمسند (ط. الحلبي) في مواضع كثيرة. والرواية المطولة أولها (وهذا لفظ أبي داود): «لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها... الحديث».

(٣) الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه في: البخاري ٨/١٠٠ «كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان...إلخ)، سنن الترمذي ٤/٣٠ (كتاب الزهد، باب ماجاء في حفظ اللسان وأوله: من يتوكل لي مابين... أتوكل له بالجنة». وجاء الحديث في نفس المكان ٤/٣٠ ـ ٣١. عن أبي هريرة بلفظ: من وقاه الله شر مابين.... دخل الجنة وانظر المسند (٥١/٣٣٣).

كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي شريح الخزاعي أن رسول الله ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**(١).

فبيَّن صلى الله عليه وسلم أنه من ضمن له هذين ضمن له الجنة، وهذا يقتضي أن من هذين يُدخل النار، ولهذا حرَّم الله الفواحش ماظهر منها ومابطن، وحرَّم أيضًا انتهاك الأعراض، وجعل / في القذف بالفاحشة من العقوبة المقدرة ـ وهي حد القذف ـ [ثمانين] جلدة.

وبيَّن صلى الله عليه وسلم أن الزنا من الكبائر، وأن قذف المحصنات الغافلات من الكبائر، وهو من نوع الكبائر، إذا لم يأت عليه [القاذف] بأربعة شهداء، وإن كان قد وقع، فإنه أظهر مايحب الله إخفاءه.

كما قال تعالى: **﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾**. [سورة النور، الآية: ١٩].

وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: **«كل أمتي معافىً إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يافلان عملت البارحة كذا وكذا، بات يستره ربه ويصبح يكشف ستره»**(٢).

وقال: **«من ابتلي من هذه القاذورة بشيء فليستتر بستر الله، فإنه من يبدي لنا**

---

(١) هذا جزء من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه (قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة وأنس وأبي شريح الكعبي وهو العدوي واسمه خويلد بن عمرو) في: البخاري ٨/١١ (كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. . . إلخ)، ٨/٣٢ (عن أبي شريح) (كتاب الأدب، باب إكرام الضيف. . . إلخ)، ٨/١٠٠ (كتاب الرقاق، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. . .) مسلم ١/٦٨ (كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير)، سنن الترمذي ٤/٧٠ (كتاب القيامة، باب منه)؛ المسند (ط. المعارف) ١٤/٤٩. (ط. الحلبي) ٢/٤٣٣، ٤/٣١. وهو في مواضع أخرى في المسند.

(٢) الحديث بألفاظ مقاربة عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ٨/٢٠ (كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه)؛ مسلم ٤/٢٢٩١ (كتاب الزهد، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه).

صفحته نقم عليه كتاب الله»[1].

وفي الصحيحين عن صفوان بن محرز أن رجلاً سأل ابن عمر: كيف سمعت النبي ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «**يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، [ويقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم] فيقرره. ثم يقول سترتها عليك في [الدنيا] وأنا أغفرها لك اليوم**»؟[2].

ولهذا يكثر وقوع الناس في أحد هذين الذنبين.

فمن الناس من يبتلي بالفاحشة وإن كان ممسكًا عن الكلام، ومن الناس من يبتلي بالكلام والاعتداء على غيره بلسانه وإن كان عفيفًا عن الفاحشة.

وأيضًا فإن [من] الكلام المنهي عنه: الخوض في الدين بالبدع والضلالات، مع تضمنه لشهوة الطعام. ومابين الفرجين يتضمن أقوى الشهوات، وذلك من الاستمتاع بالخلاق في الدنيا، كما جمع [الله تعالى] بينهما بقوله: ﴿**فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا**﴾. [سورة التوبة، الآية: ٦٩]. الأول: يتضمن الشبهات. والثاني: يتضمن الشهوات. الأول يتضمن الدين الفاسد. والثاني يتضمن الدنيا/ الفاجرة.

وكان السلف يحذرون من هذين النوعين: من المبتدع في دينه، والفاجر في

---

(١) الحديث عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في: الموطأ ٢/٨٢٥ (كتاب الحدود، باب ماجاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا) ولفظه: أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنا.. فأمر به رسول الله ﷺ فجلد. ثم قال: «أيها الناس، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله. من أصاب من هذه القاذورات شيئًا فليستتر بستر الله، فإنه من يبدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله».

(٢) الحديث عن صفوان بن محرز رضي الله عنه في: البخاري ٨/٢٠ (كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه)، ٩/١٤٨ (كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم)، مسلم ٤/٢١٢٠ (كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل...) وأوله: يُدني المؤمن.. الحديث. وجاء الحديث مطولاً في المسند (ط. المعارف) ٧/٢٥٤، ٨/١٥٥ ـ ١٥٦.

دنياه. كل من هذين النوعين ـ وإن لم يكن كفرًا محضًا ـ فهذا من الذنوب والسيئات التي تقع من أهل القبلة.

وجنس البدع وإن كان شرًا، لكن الفجور شر من وجه آخر، وذلك أن الفاجر المؤمن [لا] يجعل الفجور شرًّا من الوجه الآخر الذي هو حرام محض، لكن مقرونًا باعتقاده لتحريمه، وتلك حسنة في أصل الاعتقاد، وأما المبتدع فلابد أن تشتمل بدعته على حق وباطل، لكن يعتقد أن باطلها حق أيضًا، ففيه من الحسن ماليس في الفجور، ومن السيء ماليس في الفجور، وكذلك بالعكس.

فمن خلص من الشهوات المحرَّمة والشهوات المبتدعة وجبت له الجنة. وهذه [هي] الثلاثة: الكلام المنهي عنه، والطعام المنهي عنه، والنكاح المنهي عنه. فإذا اقترن بهذه الكبائر استحلالها كان ذلك أمرًا، فكيف إذا جُعلت طاعة وقربة وعقلاً ودينا؟!

وهؤلاء هم الذين يستحقون عقوبة أمثالهم من الأمم. كما ثبت في الصحيح أنه يكون في هذه الأمة من يمسخ قردة وخنازير، وكما روي أنه سيكون فيه خسف وقذف ومسخ.

وقال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿**وما هي من الظالمين ببعيد**﴾. [سورة هود، الآية: ٨٣]. أي من ظالمي هذه الأمة[1]. وفي ذلك من الأحاديث مايضيق هذا الموضع عن ذكره، وفي عامتها يذكر استحلالهم [لها].

وأصل الضلال والغيّ من هؤلاء الذين يستحسنون عشق الصور ويحمدونه ويأمرون به ـ وإن قيدوه مع ذلك بالعفة ـ أن المحبة هي أصل كل حركة في العالم، فالنفس إذا لم يكن فيها حركة، ولا هي قوية الهمة والإرادة حتى تحصل لها محبة

---

(١) في تفسير الطبري (ط. بولاق) ١٢/ ٥٩: «عن قتادة في قوله: (وماهي من الظالمين ببعيد). قال يعني ظالمي هذه الأمة. قال: والله ماأجار منها ظالمًا بعد».

شديدة، كانت تلك المنهيات عنها هي أصول الشر، وهي التي إذا ظهرت قامت الساعة.

كما في الصحيح عن أنس أنه قال: لأحدثنكم حديثًا/ لايحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي ﷺ، سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد**»(1).

فمن ظهور الجهل ظهور الكلام في الدين بغير علم، وهو الكلام بغير سلطان من الله ـ وسلطان الله كتابه ـ ومن ظهور الزنا ظهور اللواط ـ وإن كان له اسم يخصه ـ فهو شر نوعي الزنا، ولكون ظهور شهوات الغيّ ـ البطن والفرج ـ هي أغلب مايدخل الناس النار، كما ذكر ذلك النبي ﷺ فيما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد**»(2).

والسرقة بالمال الذي [هو] أعظم مقصود الأكل، ولهذا يعبر عن أخذه بالأكل، كقوله [تعالى]: ﴿**لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٨٨].

وهذه الثلاثة هي التي يعقد الفقهاء فيها أبواب الحدود: [باب] حد الزنا،

---

(1) الحديث ـ بألفاظ متقاربة ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه في: البخاري ٢٣/١ (كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل)، ٣٧/٧ (كتاب النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء)، ١٠٤/٧ (كتاب الأشربة، أول الكتاب)، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود، باب إثم الزناة)، مسلم ٢٠٥٦/٤ (كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه)، سنن الترمذي ٣٣٣/٣ (كتاب الفتن، باب ماجاء في أشراط الساعة)، سنن ابن ماجة ١٣٤٣/٢ (كتاب الفتن باب أشراط الساعة)، المسند (ط. الحلبي) ٩٨/٣، ١٧٦.

(2) الحديث بهذا اللفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ١٦٤/٨ (كتاب الحدود، باب إثم الزناة).

باب حد السرقة، باب حد شرب الخمر، ورابعها باب حد القذف ـ مندرجة فيما بين لحييه وبين رجليه.

وقد روى هذا الحديث البخاري[1] عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لايزني العبد حين يزني وهو مؤمن، ولايسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولايشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن [ولايقتل وهو مؤمن]**». قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف يُنزع الإيمان منه؟ قال: هكذا وشبَّك بين أصابعه. ثم أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبَّك بين أصابعه.[2]

فإذا اقترن بهذه الكبائر تلك المحبة [في نفس صاحبها فإنها] توجب حركتها وقوة إرادتها، فيعطى من المال مالم يكن يعطيه، / ويقدم على مخاوف لم يكن يقدم عليها، ويحتال ويدبِّر مالم يكن يحتاله ويدبره قبل ذلك، ويصير والهًا من التفكر والنظر مالم يكن قبل ذلك، فلما رأوا مافيه من هذه الأمور التي هي من جنس المحمودات حمدوه بذلك. وهذا من جنس من حمد الخمر لما فيها من الشجاعة والكرم والسرور ونحو ذلك.

وذلك أن هؤلاء كلهم لحظوا مافيها من جنس المحبوب، وأغفلوا ماتتضمنه من

---

(١) ٨/١٦٤ (كتاب الحدود، باب إثم الزناة).

(٢) هذا الحديث في هذا الموضع عن ابن عباس رضي الله عنهما، وورد قبل قليل عن أبي هريرة رضي الله عنه في البخاري. والحديث عن أبي هريرة أيضًا في: البخاري ٣/١٣٦ (كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه)، ٧/١٠٤ (كتاب الأشربة، باب إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان)، ٨/١٥٧ (كتاب الحدود، باب لايشرب الخمر)، مسلم ١/٧٦، ٧٧ (كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله)، سنن أبي داود ٤/٣٠٦ (كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه)، سنن الترمذي ٤/١٢٧ (كتاب الإيمان، باب لايزني الزاني وهو مؤمن)، سنن ابن ماجة ٢/١٢٩٨ ـ ١٢٩٩ (كتاب الفتن، باب النهي عن النهبة)، سنن الدارمي ٢/١١٥ (كتاب الأشربة، باب في التغليظ لمن شرب الخمر)، المسند (ط. المعارف) ١٣/٤١.

جنس المذموم. فإن الذي يورثه العشق من نقص العقل والعلم، وفساد الخلق والدين، والاشتغال عن مصالح الدين والدنيا، أضعاف مايتضمنه من جنس المحمود.

وأصدق شاهد على ذلك مايُعرف من أحوال الأمم وسماع أخبار الناس في ذلك، [فهو] يغني عن معاينة ذلك وتجربته، ومن جرَّب ذلك أو عاينه اعتبر بما فيه كفاية، فلم يوجد قط عشق إلا وضرره أعظم من منفعته.

ولهذا قال أبو القاسم القشيري في رسالته[1]: «ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة صحبة الأحداث. ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع الشيوخ: هذا عبد أهانه الله وخذله، بل عن نفسه شغله، ولو لألف ألف كرامة أهَّلَه. وهب أنه بلغ رتبة الشهداء، لما في الخبر من التلويح بذلك، أليس قد شغل ذلك القلب بمخلوق!؟ وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب، حتى يعد ذلك يسيراً، [وقد] قال الله تعالى: ﴿وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم﴾. [سورة النور، الآية: ١٥].

وهذا الواسطي [رحمه الله] يقول: إذا أراد الله هوان عبدٍ ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف».

وقال[1]: «سمعت أبا عبدالله الصوفي يقول: سمعت محمد بن أحمد النجّار يقول: سمعت أبا عبدالله الحصري/ يقول: سمعت فتحًا الموصليّ يقول: صحبت ثلاثين شيخًا كانوا يعدون من الأبدال، فكلهم أوصوني عند فراقي إياهم، وقالوا [لي]: اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم.

ومن ارتقى في هذا الباب عن حال الفسق، وأشار إلى أن ذلك من بلايا

---

(١) ٢/٧٤٤ ـ ٧٤٥.

(٢) بعد كلامه السابق مباشرة (٢/٧٤٥)

الأرواح، وأنـه لايضر، فما قالوه من وساوس القائلين بالسماع[1]، وإيراد حكايات عن [بعض] الشيوخ[2]، كان الأولى بهم إسبال الستر على هناتهم وآفاتهم، فذلك نظير الشرك وقرين الكفر.

فليحذر المريد [من] مجالسة الأحداث ومخالطتهم، فإن اليسير منه فتح باب الخذلان، وبدء حال الهجران، ونعوذ بالله من قضاء السوء».

وهنا أصل عظيم نافع يجب اعتباره، وهو أن الأمور المذمومة في الشريعة ـ كما ذكرناه ـ هو ماترجّح فساده على صلاحه، كما أن الأمور المحمودة ماترجّح صلاحه على فسـاده، فالحسنـات تغلب فيها المصالح، والسيئات تغلب فيها المفاسد، والحسنات درجات بعضها فوق بعض، والسيئات بعضها أكبر من بعض، فكما أن أهـل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقرّبين، فأهل السيئـات ينقسمون إلى الفجّار الظالمين والكفّار المكذّبين، وكل من هؤلاء هم درجات عند الله.

ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل، فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها، كان في مزيد التقريب، وإن انتقل إلى ماهو دونها، كان في التأخر والرجوع. وكذلك السيئات كلما كانت أعظم كان صاحبها أوْلى بالغضب واللعنة والعقاب.

وقـد قال تعـالى: ﴿**لايستـوي القـاعـدون من المؤمنـين غير أولي الضرر والمجـاهـدون في سبيـل الله بأمـوالهم وأنفسهم فضَّـلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة**﴾. [سورة النساء، الآية: ٩٥][2].

وقال: ﴿**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام**﴾. إلى قوله: ﴿**الذين**

---

(١) في «القشـيرية» بالشاهد. وفي الأصل: «بالسما» وبعدها بياض بمقدار كلمة. ورجحت أن يكون الصواب «بالسماع».

(٢) في الأصل حرفت الآية هكذا لايستوى المؤمنون من القاعدون

آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾. [سورة التوبة، الآية: ٢٠][1].

وقال: ﴿لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾. [سورة الحديد، الآية: ١٠].

وقال: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. [سورة المجادلة، الآية: ١١].

وكذلك قال في السيئات: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾. [سورة التوبة، الآية: ٣٧].

وقال: ﴿زدناهم عذابًا فوق العذاب﴾. [سورة سورة النحل، الآية: ٨٨].

وقال: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾. [سورة التوبة، الآية: ١٢٥].

وقال: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٠].

وقال: ﴿وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزد الظالمين إلا خسارا﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٨٢].

ومعلوم أن التوبة هي جماع الرجوع من السيئات إلى الحسنات، ولهذا لايحبط جميع السيئات إلى التوبة. والردة هي جماع الرجوع من الحسنات إلى السيئات، ولهذا لايحبط جميع الحسنات إلا الردة عن الإيمان.

وكذلك ماذكرناه في تفاوت السيئات، هو في الكفر والفسق والعصيان، فالكفّار بعضهم دون بعض. ولهذا يذكر الفقهاء في باب الردة والإسلام: انتقال الرجل ـ كأحد الزوجين ـ من دين إلى دين آخر: انتقال إلى دين خير من دينه، أو دون دينه، أو مثل دينه، فيقولون: إذا صار الكتابي مجوسيًا أو مشركًا فقد انتقل إلى شر من دينه، وإذا صار المشرك أو المجوسي كتابيًا فقد انتقل إلى خير من دينه،

(١) سقطت كلمة «وأنفسهم» من الآية الكريمة في الأصل.

وإذا تهوّد النصراني ـ أو بالعكس ـ فقد انتقل إلى نظير دينه. والتمجس يُقر عليه بالاتفاق، وأما الإشراك فلا يُقر عليه إلا بعض الناس عند بعض العلماء، والصابئة نوعان عند المحققين، وعلى قولين عند آخرين. ومعرفة مراتب الأديان محتاج إليها في مواضع كثيرة لمعرفة مراتب الحسنات.

/والفقهاء يذكرون ذلك لأجل معرفة أحكامهم وتناكحهم وذبائحهم، وفي دمائهم وقتالهم وإقرارهم بالجزية المضروبة عليهم، ونحو ذلك من الأحكام التي جاء بها الكتاب والسنة في أهل الملل والأحزاب، الذين قال الله فيهم: ﴿**ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده**﴾. [سورة هود، الآية: ١٧].

وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿**فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتابٍ وأمرت لأعدِل بينكم**﴾. [سورة الشورى، الآية: ١٥].

والعدل وضع كل شيء في موضعه، كما أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه.

ولهذا لما اقتتلت فارس المجوس والروم النصارى، وكان النبي ﷺ بمكة إذ ذاك، وهو في طائفة قليلة ممن آمن به، كان هو وأصحابه يحبون أن تغلب الروم، لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تغلب فارس، لأنهم من جنسهم، ليسوا أهل كتاب، فأنزل الله في ذلك: ﴿**الٓمٓ* غُلبت الروم في أدنى الأرض**﴾. [سورة الروم، الآية: ١، ٢]. والقصة مشهورة في كتب الحديث والتفسير والمغازي.

وإذا كان كذلك فقد يكون الرجل على طريقة من الشر عظيمة، فينتقل إلى ماهو أقل منها شرًا وأقرب إلى الخير، فيكون حمد تلك الطريقة ومدحها لكونها طريقة الخير الممدوحة. مثال ذلك أن الظلم كله حرام مذموم، فأعلاه الشرك، فإن الشرك لظلم عظيم، والله لايغفر أن يشرك به، وأوسطه ظلم العباد بالبغي والعدوان، وأدناه ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله، فإذا كان الرجل مشركًا كافرًا فأسلم باطنًا وظاهرًا، بحيث صار مؤمنًا، وهو مع إسلامه يظلم الناس ويظلم

نفسه، فهو خير من أن يبقى على كفره ولو كان تاركخا لذلك الظلم.

وأما إذا أسلم ظاهرًا فقط، وهو منافق في الباطن، / فهذا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار. وأما في الدنيا فقد يكون أضرَّ على المسلمين منه لو بقي على كفره، وقد لايكون كذلك، فإن إضرار المنافقين بالمؤمنين يختلف باختلاف الأحوال.

لكن إذا أسلم نفاقًا فقد يرجى له حسن الإسلام فيصير مؤمنًا، كمن أسلم تحت السيف، وكذلك من أسلم لرغبةٍ أو لرهبة أو نحو ذلك. فالإسلام والإيمان أصل كل خير وجماعُهُ.

وكذلك [من] كان ظالمًا للناس في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، فانتقل عن ذلك إلى مايظلم به نفسه خاصة: من خمر وزنا، فهذا أخف لإثمه وأقل لعذابه.

وهكذا النحل التي فيها بدعة، قد يكون الرجل رافضيًا فيصير زيديًا، فذلك خير له. وقد يكون جهميًا قدريًا فيصير جهميًا غير قدري، أو قدريًا غير جهمي. أو يكون من الجهمية الكبار، فيتجهم في بعض الصفات دون بعض، ونحو ذلك.

فهؤلاء المتفلسفة والمتصوفة ونحوهم، ممن مدح العشق والغناء ونحو ذلك، وجعلوه مما يستعينون به على رياضة أنفسهم وتهذيبها وصلاحها من هذا الباب، فإن هؤلاء في طريقهم من الشرك والضلال مالا يحصيه إلا ذو الجلال، فإن المتفلسفة قد يعبدون الأوثان والشمس والقمر ونحو ذلك، فإذا صار أحدهم يروض نفسه بالعشق لعبادة الله وحده. أو رياضة مطلقة لايعبد فيها غير الله، كان ذلك خيراً له من أن يعبد غير الله.

وكذلك الاتحادية الذين يجعلون الله هو الوجود المطلق، أو يقولون: إنه يحلّ في الصور الجميلة، متى تاب الرجل منهم من هذا، وصار يسكِّن نفسه بعشق بعض الصور، وهو لايعبد إلا الله وحده، كانت هذه الحال خيراً من تلك حال.

فهـذه الـذنـوب مع صحـة التوحيد، خير من فساد التوحيد مع عدم هذه الذنوب. ولهذا نجد الناس يفضّلون من كان من الملوك ونحوهم إنما يظلم نفسه بشرب الخمر والزنا أو الفواحش ويتجنب ظلم الرعية، ويتحرى العدل فيهم، على من كان يتجنب الفواحش والخمر والزنا وينتصب لظلم الناس في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم.

وهؤلاء الظالمون قد يجعلون الظلم دينًا يتقربون به بجهلهم، كما أن أولئك الظالمين لأنفسهم قد يجعلون ذلك بجهلهم دينًا يتقربون به. فالشيطان قد زيَّن لكثير من هؤلاء وهؤلاء سوء عملهم فرأوه حسنًا.

لكن كثير من الناس يجمعون بين هذا وهذا، فإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها. والحسنات والسيئات قد تتلازم ويدعو بعضها إلى بعض. كما في الصحيح عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، ولايزال الرجل يصدُقُ ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقًا. وإيَّاكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، ولايزال العبد يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذَّابًا**»[1].

فالصدق مفتاح كل خير، كما أن الكذب مفتاح كل شر. ولهذا يقولون عن

---

(١) الحديث ـ بألفاظ متقاربة ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في: البخاري ٨/٢٥ (كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿**يـاأيهـا الـذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾، مسلم ٤/٢٠١٣ (كتاب البر، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله) سنن الترمذي ٣/٢٢٤ ـ ٢٢٥ (كتاب البر، باب ماجاء في الصدق والكذب). سنن أبي داود ٤/٤٠٧ (كتاب الأدب، باب التشديد في الكذب) وأوله: إياكم والكذب. . . وجاء الحديث مع اختلاف في الألفاظ في: سنن ابن ماجة ١/١٨ (المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل)، سنن الدارمي ٢/٢٩٩ ـ ٣٠٠) كتاب الرقاق، باب في الكذب، المسند (ط. المعارف) ٥/٢٣١، ٢٧٥، ٣٤٣. وفي عدة مواضع في الجزء السادس منه.

بعض المشايخ إنه قال لبعض من استتابه من أصحابه: أنا لاأوصيك إلا بالصدق. فتأمّلوا فوجدوا الصدق يدعوه إلى كل خير.

ولهذا فرّق الله سبحانه بين أهل السعادة وأهل الشقاوة بذلك فقال: **﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين* والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون* لهم مايشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين* ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾**. [سورة الزمر، الآيات: ٣٢ ـ ٣٥][(١)].

وترتيب الكبائر ثابت في الكتاب والسنة، كما في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال: قلت: يارسول أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل الله ندًّا وهو خلقك**». **قلت**[(٢)]: **ثم أي؟ قال**: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». **قلت: ثم أي؟ قال**: «**أن تزاني بحليلة جارك**». وتصديق ذلك في كتاب الله: **﴿والذين لايدعون مع الله إلـهًا آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولايزنون﴾**. [سورة الفرقان، الآية: ٦٨][(٣)].

ولهذا قال الفقهاء: أكبر الكبائر الكفر، ثم قتل النفس بغير حق، ثم الزنا. لكن النبي ﷺ ذكر لابن مسعود من جنس أعلى فأعلى: الكفر: هو أن **تجعل لله**

---

(١) الآية ٣٢ في الأصل محرفة تماما.

(٢) في الأصل: «قال: قلت».

(٣) الحديث ـ بألفاظ متقاربة ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في: البخاري ٨/٨ (كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه)، ٨/١٦٤ (كتاب الحدود، باب إثم الزناة). ٩/١٥٢ (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: **﴿فلا تجعلوا لله أندادًا﴾**. والحديث في مواضع أخرى في البخاري، وفي: مسلم ١/٩٠، ٩١ (كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، سنن الترمذي ٥/١٧ ـ ١٨ (كتاب التفسير، تفسير سورة الفرقان)، سنن أبي داود ٢/٣٩٤ (وكتاب الطلاق، باب في تعظيم الزنا)، سنن النسائي ٧/٨٢ ـ ٨٣ (كتاب التحريم، باب ذكر أعظم الذنب)؛ المسند (ط. المعارف) ٥/٢١٧، ٦/٧٦، ٨٦ ـ ٨٧.

ندًّا، بخلاف الكتابيّ الذي ليس بمشرك، فإنه دون ذلك. وأعظم القتل ولدك، وأعظم الزنا [الزنا] بحليلة الجار.

وهذا كما ذكرنا أن الظلم ثلاث مراتب: الشرك، ثم الظلم للخلق، ثم ظلم النفس. فالقتل من ظلم الخلق. فإذا [كان] قتلاً للولد الذي هو بعضه منك كان فيه الظلمان، والزنا هو من ظلم النفس، لكن إذا كان بحليلة الجار صار فيه الظلمان أيضًا. لكن المغلَّب في القتل ظلم الغير، والظلم في الزنا ظلم النفس.

ولهذا كان القود حقًّا للآدمي إن شاء استوفاه وإن شاء عفا عنه، وكان حد الزنا حدًّا لله، ليس لآدمي فيه حق معين، لكن قد يقترن ببعض أنواع الزنا، ويقتضي أمورًا تضر الناس، يكون بها أعظم من قتلٍ لايضر به إلا المقتول فقط.

وأيضًا فقتل النفس يدخل فيه من التأويل ماليس يدخل في الزنا، فإن حلاله / بُيِّن من حرامه، بخلاف القتل فإن فيه مايظهر تحريمه، وفيه مايظهر وجوبه أو استحبابه أو حلّه، وفيه مايشتبه. ولهذا جعل الله فيه شيئًا، ولم يجعل ذلك في الزنا بقوله: ﴿**ولايقتلون النفس**﴾. [سورة الفرقان: ٦٨].

فصـل

والله قد خلق الصـوت الحسن، وجعل النفوس تحبّه وتلتذ به، فإذا استعنًّا بذلك في استماع مالمرنا باستماعه، وهو كتابه، وفي تحسين الصوت به، كما أمرنا بذلـك حيث قال: «**زينـوا القـرآن بأصـواتكم**». وكـما كان يفعـل أصحـابه بحضرته [مثل] أبي موسى وغيره - كنا قد استعملنا النعمة في الطاعة، وكان هذا حسنًا مأمورًا به، كما كان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: «ياأبا موسى ذكِّرنا ربنا» فيقرأ وهم يستمعون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أنم يقرأ والباقي يستمعون.

فهـذا كان استـماعهم، وفي هذا السماع كانوا يستعملون الصوت الحسن، ويجعلون التـذاذهم بالصـوت الحسن عونـًا لهم على طاعة الله وعبادته باستماع كتابه، فيُثابون على هذا الالتذاذ، إذ اللذة المأمور بها المسلم يُثاب عليها كما يثاب على أكله وشربه ونكاحه، وكما يُثاب على لذات قلبه بالعلم والإيمان، فإنها أعظم اللذات، وحلاوة ذلك أعظم الحلاوات.

ونفس التذاذه وإن كان متولدًا عن سعته/ ، وهو في نفسه ثواب، فالمسلم يُثاب على عمله وعمل مايتولد عن عمله، ويُثاب عمَّا يلتذ به من ذلك مما هو أعظم لذة منه، فيكون متقلِّبًا في نعمة ربه وفضله.

فأمـا أن يُستـدل بمجرد استلذاذ الإنسان للصوت أو ميل الطفل إليه، أو استراحة البهائم به، على جواز أو استحباب في الدين، فهو من أعظم الضلال، وهو كثير فيمن يعبد الله بغير العلم المشروع.

ومن المعلوم أن الأطفال والبهائم تستروح بالأكل والشرب، فهل يُستدل بذلك على أن كل أكل وشرب فهو حسن مأمور به؟!.

وأصل الغلط في هذه الحجج الضعيفة أنهم يجعلون الخاص عامًا في الأدلة المنصوصة، وفي عموم الألفاظ المستنبطة، فيجنحون إلى [أن] الألفاظ في الكتاب والسنة أباحت أو حمدت نوعًا من السماع، يدرجون فيها سماع المكاء والتصدية، أو يجنحون إلى المعاني التي دلت على الإباحة أو الاستحباب في نوع من الأصوات والسماع، يجعلون ذلك متناولا لسماع المكاء والتصدية.

وهذا جمع بين مافرّق الله بينه، بمنزلة قياس الذين قالوا إنما البيع مثل الربا. وأصل هذا قياس المشركين الذين عدلوا بالله، وجعلوا لله أندادًا سووهم برب العالمين في عبادتها او اتخاذها الهة، وكذلك من عدل رسوله متنبئًا، كمسيلمة الكذاب، أو عدل بكتابه وتلاوته واستماعه كلامًا آخر أو قراءته أو سماعه، أو عدل بما شرعه من الدين دينا اخر شرعه له شركاؤه، فهذا كله من فعل المشركين، وإن دخل في بعضه من للمؤمنين قوم متأولين، فالناس كما قال الله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون**﴾. [سورة يوسف، الآية: ١٠٦].

فالشرك في هذه الامة اخفى من دبيب النمل، وهذا مقام ينبغي للمؤمنين التدبر فيه، فإنه مابدل دين الله في الأمم المتقدمة وفي هذه الأمة إلا بمثل هذا القياس، ولهذا قيل: ماعُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض مايستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئا من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به، كمن عمد إلى كلام الله الذي أنزله، وأمر باستماعه، فعدل به سماع بعض الأشعار.

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**». رواه الترمذى وغيره[1].

---

(١) لم اجد هذا الحديث في سنن الترمذي، ولكني وجدته في سنن الدارمي ٢/٤٤١ (كتاب فضائل القران، باب فضل كلام الله على سائر الكلام) ونصه.. عن أبي سعيد الخدري قال: قال =

ورُوي أيضًا عنه: «ماتقرَّب العباد إلى الله [شيء][1] أحب إليه مما خرج منه»[2] يعني القرآن. وهذا محفوظ عن خبَّاب بن الأرت، أحد المهاجرين الأولين السابقين. قال: «ياهناه[3] تقرَّب إلى الله بما استطعت، فلن يُتقرب إليه بشيء

= رسول الله ﷺ: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي وذكري أعطيته أفضل ثواب السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»، ثم ذكر الدارمي في نفس الصفحة حديثًا آخر عن شهر بن حوشب قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل كلام الله على خلقه كفضل الله على خلقه». وشهر ضعيف وذكر البخاري في كتاب «خلق أفعال العباد» ص١٣٢ (ضمن مجموعة عقائد السلف) مايلي: «وقال أبو عبدالرحمن السلمي: فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرب على خلقه» وذكر أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) المتقدم الذي أورده الإمام أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي في سننه في كتابه الرد على الجهمية، ص٣٢٤ (ضمن مجموعة عقائد السلف) وممن روى هذا الحديث ايضا عبدالله بن أحمد في السنة ص: ٢٢ واللالكائي وأحمد في السنة على الحسن مرفوعًا. وذكر السيوطي في «الجامع الكبير» الحديث ونصه: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرحمن على خلقه» ثم قال: «هب البيهقي في شعب الإيمان» عن أبي هريرة ورواه في الأسماء والصفات ص: ٢٣٩.

(١) زدت كلمة «بشيء» إلى الأصل ليستقيم المعنى.

(٢) لم أجد الحديث بهذه الألفاظ في سنن الترمذي فلعل الشيخ رواه من حفظه ولكني وجدت في سنن الترمذي ٤/٢٤٩ - ٢٥٠ (كتاب فضائل القرآن، باب منه) حديثين: الأول عن أبي أمامة قال: قال النبي ﷺ: «ماأذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما، وإن البر ليُذرُّ على رأس العبد مادام في صلاته، وماتقرَّب العباد إلى الله عز وجل بمثل ماخرج منه. قال أبو النضر: يعني القرآن». وقد رُوى هذا الحديث عن زيد بن أرطأة عن جبير بن نُفير عن النبي ﷺ مرسلاً: ثم ذكر الترمذي حديثًا آخر عن زيد بن أرطأة عن جبير بن نفير قال رسول الله ﷺ «إنكم لن ترجعوا إلى الله بأفضل مما خرج منه. يعني القرآن». ثم قال الترمذي: «هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه. وبكر بن خُنيْس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره». والحديث أخرجه أيضًا الحاكم في المستدرك ٢/٤٤١ وعنه البيهقي في الأسماء ص٢٣٦ وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين والحديث صحيح بشواهده.
وأورد الإمام أحمد حديث أبي أمامة المتقدم في مسنده (ط. الحلبي) ٥/٢٦٨.

(٣) في الأصل ياهساه (بدون نقط). وفي «لسان العرب» مادة «هنا» أن قولنا: ياهناه: معناه =

أحب إليه من كلامه»[٤]، فإذا عدل بذلك مانزَه الله عنه ورسوله بقوله تعالى: ﴿**وماعلمناه الشعر وماينبغي له**﴾. [سورة يس، الآية: ٦٩]. وجعله قرانًا للشيطان، كما في الحديث: «فما قرآني؟ قال: **الشعر**» كان هذا قد عدل كلام الرحمن بكلام الشيطان. وهذا قد جعل الشيطان عدلا للرحمن، فهو من جنس الذين قال الله فيهم: ﴿**فكبكبوا فيها هم والغاوون* وجنود إبليس أجمعون* قالوا وهم فيها يختصمون* تالله إن كنا لفي ضلال مبين* إذ نسويكم برب العالمين**﴾. [سورة الشعراء، الآيات: ٩٤ ـ ٩٨].

والاستدلال بكون الصوت الحسن نعمة، واستلذاذ النفوس به، على جواز استعماله في الغناء، أو استحباب ذلك في بعض الصور، مثل الاستدلال بكون الجمال نعمة، ومحبة النفوس الصور الجميلة، على جواز استعمال الجمال الذي للصبيان في إمتاع الناس به: مشاهدة ومباشرة وغير ذلك، أو استحباب ذلك في بعض الناس به: مشاهدة ومباشرة وغير ذلك، / أو استحباب ذلك في بعض الصور، وهذا أيضًا قد وقع فيه طوائف من المتفلسفة والمتصوفة والعامة، كما وقع في الصوت أكثر من هؤلاء، لكن الواقعون في الصور فيهم من له من العقل والدين ماليس هؤلاء، إذ ليس في هؤلاء، إذ ليس في هؤلاء رجل مشهور بين الناس شهرة عامة، بخلاف أهل السماع، ولكن هم ظرَّقوا لهم الطريق، وذرِّعوا

= يافلان. وأنه يقال للرجل: ياهناه... ومن قال للذكر: ياهناهُ وياهناهِ قال للأنثى: ياهنتاهُ أقبلي وياهنتاهِ.

(٤) في الأصل: من كلام، وهو تحريف. وأورود البخاري الأثر عن خباب بن الأرت في كتابه «خلق أفعال العباد» صفحة ١٣٢ (مجموعة عقائد السلف) فقال: وقال عن خبّاب بن الأرت رضي الله عنه: تقرَّب إلى ا لله ماستطعت، فإنك لن تقرب (الكلمة في الأصل المطبوع محرفة ولعل صوابها: تتقرب) إلى الله بشيء أحب إليه من كلامه». قال الحازمي أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن وأحمد في السنة ص: ٢٠ وفي الزهد ص: ٣٥ وأبو سعيد الدارمي (٣١٠) والآجري ص: ٧٧ والحاكم وإسناده صحيح.

الذريعة، حتى آل الأمر بكثير من الناس أن قالوا وفعلوا في الصوت نظير ماقاله هؤلاء وفعلوه في الصور، يحتجون على جواز النظر إليه والمشاهدة بمثل قوله ﷺ : «**إن الله جميل يحب الجمال**»(١) وينسون قوله : «**إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢).

ويحتجون بما في ذلك من راحة النفوس ولذتها، كما يحتج هؤلاء ويكرمون ذا [الصورة] على مايبذله من صورته وإشهادهم إياها، كما يكرم هؤلاء ذا الصوت على مايبذله من صوته وإسماعهم إياه، بل كثيراً مايجمع في الشخص الواحد بين الصورة والصوت كما يفعل في المغنيّات من القينات.

وقد زيّن الشيطان لكثير من المتنسكة والعبّاد أن محبة الصور الجميلة إذا لم يكن بفاحشة فإنها محبة لله، كما زيّن لهؤلاء أن استماع هذا الغناء لله، ففيهم من يقول هذا اتفاقًا، وفيهم من يظهر أنه يحبه لغير فاحشة، ويبطن محبة الفاحشة، وهو الغالب.

لكن ماأظهروه من الرأي الفاسد، وهو أن يُحب لله مالم لم يأمر الله بمحبته، هو الذي سلّط المنافق منهم على أن يجعل ذلك ذريعة إلى الكبائر، ولعل هذه البدعة منهم أعظم من الكبيرة مع الإقرار بأن ذلك ذنب عظيم والخوف من الله من العقوبة، فإن هذا غايته أنه مؤمن فاسق قد جمع سيئة وحسنه، وأولئك مبتدعة ضُلّال حين جعلوا مانهى الله عنه مما أمر الله به، وزيّن لهم سوء أعمالهم فرأوه

---

(١) الحديث مع اختلاف في بعض الألفاظ ـ عن عبدالله بن مسعود وغيره من الصحابة رضي الله عنهم في: مسلم ١/٩٣ (كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه). وأوله: «لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. . .» الحديث. وجاء الحديث في المسند (ط. الحلبي) ٤/١٣٣ ـ ١٣٤، ١٥١.

(٢) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في: مسلم ٤/١٩٨٧ (كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم)، سنن ابن ماجة ٢/١٣٨٨ (كتاب الزهد، باب القناعة)؛ المسند (ط. المعارف) ١٤/٢٧٧ (رقم ٧٨١٤)، ط. الحلبي ٢/٥٣٩.

حسنًا، وبمثلهم يضل أولئك حتى لاينكروا المنكر إذا اعتقدوا أن هذا يكون عبادة الله.

ومن جعل مالم يأمر الله بمحبته محبوبًا لله، فقد شرع دينًا لم يأذن الله به، وهو مبدأ الشرك. كما قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله**﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٦٥].

فإن محبة النفوس الصورة والصوت قد تكون عظيمة جدًا، فإذا جُعل ذلك دينًا وسُمِّيَ لله، صار كالأنداد والطواغيت المحبوبة تدينًا وعبادة.

كما قال تعالى: ﴿**وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم**﴾ [سورة البقرة، الآية: ٩٣]. وقال تعالى عنهم: ﴿**أن امشوا واصبروا على آلهتكم**﴾. [سورة ص: ٦].

بخلاف من أحب المحرَّمات مؤمنًا بأنها من المحرَّمات، فإن من أحب الخمر والغناء والبغي والمخنث، مؤمنًا بأن الله يكره ذلك ويبغضه، فإنه لايحبه محبةً محضة، بل عقله وإيمانه يبغض هذا الفعل ويكرهه، ولكن قد غلبه هواه ـ فهذا قد يرحمه الله: إما بتوبة إذا قوي ما في إيمانه من بغض ذلك وكراهته حتى دفع حب الهوى، وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفِّرة، وإما بغير ذلك.

أما إذا اعتقد أن هذه المحبة لله، فإيمانه بالله يقوِّي هذه المحبة ويؤيدها، وليس عنده إيمان يزعه عنها، بل يجتمع فيها داعي الشرع والطبع، الإيمان والهدي، وذلك أعظم من شرب النصراني للخمر، فهذا لايتوب من هذا الذنب ولايتخلص من وباله إلا أن يهديه الله.

فتبين له أن هذه المحبة ليست محبة لله. ولا أمر الله بها، بل كرهها ونهى عنها، وإلا فلو ترك أحدهم/ هذه المحبة لم يكن ذلك توبة، فإنه يعتقد أن جنسها دين، بحيث يرضي بذلك من غيره ويأمره به ويقرُّه عليه، وتركه لها كترك المؤمن بعض التطوعات والعبادات.

وليس في دين الله محبة أحد لحسنة قط، فإن مجرد الحسن لايثيب الله عليه ولايعاقب، ولو كان كذلك كان يوسف عليه السلام، لمجرد حسنه، أفضل من غيره من الأنبياء لحسنه. وإذا استوى شخصان في الأعمال الصالحة، وكان أحدها أحسن صورة وأحسن صوتًا، كانا عند الله سواء، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، يعم صاحب الصوت الحسن والصورة الحسنة، إذا استعمل ذلك في طاعة الله دون معصيته، كان أفضل من هذا الوجه، كصاحب المال والسلطان إذا استعمل ذلك في طاعة الله دون معصيته، فإنه بذلك الوجه أفضل ممن لم يشركه في تلك الطاعة، ولم يُمتحن بما امتُحن به، حتى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. ثم ذلك الغير إن كان له عمل صالح آخر يساوه به، وإلا كان الأول أفضل مطلقًا.

وهذا عام لجميع الأمور التي أنعم [الله تعالى بها] على بني آدم وابتلاهم بها، فمن كان فيها شاكرًا صابرًا، كان من أولياء الله المتقين. وكان ممن امُتحن بمحبة حتى صبر وشكر، وإن لم يكن المبتلى صابرًا شكورًا بل ترك ماأمر الله به، وفعل مانهى الله [عنه] كان عاصيًا أو فاسقًا أو كافرًا، وكان من سلم من هذه المحنة خيرًا منه، إلا أن يكون له ذنوب أخرى يكافيه بها.

وإن جمع بين طاعة ومعصية، فإن ترجحت طاعته كان أرجح ممن لم يكن له مثل ذلك، وإن ترجحت معصيته كان السالم من ذلك خيرًا منه، فإن كان له مال يتمكن [به] في الفواحش والظلم/ فخالف هواه، وأنفقه فيما يبتغي به وجه الله، أحب الله ذلك منه وأكرمه وأثابه.

ومن كان له صوت حسن فترك استعماله في التخنيث والغناء، واستعمله في تزيين كتاب الله والتغني به، كان بهذا العمل الصالح، وبترك العمل السيء، أفضل ممن ليس كذلك، فإنه يُثاب على تلاوة كتاب الله، فيكون في عمله معنى الصلاة ومعنى الزكاة.

ولهـذا قال النبي ﷺ: «**مـاأذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنَّى بالقـرآن يجهـر بـه**»، وقال: «**لله أشد أذنًا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينتـــه**».

ومن كان له صورة حسنة فعفَّ عمَّا حرَّم الله تعالى، وخالف هواه وجمَّل نفسه بلباس التقوى، الذي قال الله فيه: ﴿**يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوءاتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير**﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٢٦]. كان هذا الجمال يحبه الله، وكان من هذا الوجه أفضل ممن لم يؤت مثل هذا الجمال مالا يُكساه وجه العاصي، فإن كانت خلقته حسنة ازدادت حُسنًا، وإلا كان عليها من النور والجمال بحسبها.

وأمـا أهـل الفجـور فتعلوا وجـوههم ظلمـة المعصية حتى يُكسف الجـمال المخلوق. قال ابن عباس رضي الله عنه: «**إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، [وغبرة] في الوجه [وضعفًا] في البدن**[1]**، ونقصًا في الرزق، وبغضه في قلوب الخلق**»[1].

وهذا يوم القيامة يكمل حتى يظهر لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿**يوم تبيض وجـوه وتسـودُّ وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون* وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون**﴾. [سورة آل عمران: الآية: ١٠٦ ـ ١٠٧].

---

(١) وانظر كتاب «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم فقد ذكر هذا الأثر وتكلم عليه. وكتاب المعاصي والذنوب وأثرها السيء على الأفراد والمجتمعات والشعوب لابن الجوزي بتحقيقنا.

وقال تعالى/ : ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ . [سورة الزمر، الآية: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرة* ووجوه يومئذ باسرة* تظنُّ أن يُفعل بها فاقرة﴾ . [سورة القيامة، الآية: ٢٢ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة* ضاحكة مستبشرة* ووجوه يومئذ عليها غبرة* ترهقها قترة* أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ . [سورة عبس: ٣٨ ـ ٤٢][1] .

وقال تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة* عاملة ناصبة* تصلى نارًا حامية﴾ . [سورة الغاشية، الآية: ٢ ـ ٤].

و: ﴿وجوه يومئذ ناعمة* لسعيها راضية﴾ . [سورة الغاشية، الآية: ـ ٨، ٩].

وقال تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ . [سورة الكهف، الآية: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم* على الأرائك ينظرون* تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ . [سورة المطففين، الآية: ٢٢ ـ ٢٤].

وقال النبي ﷺ: «لاتزال المسألة بأحدهم حتى يجيء يوم القيامة وليس في وجهه مُزعة لحم»[2] .

وقال: «من سأل الناس وله مايكفيه جاءت مسألته خدوشًا أو كدوحًا في وجهه

---

(١) في الأصل لم يذكر الناسخ الآية ٤١ من سورة عبس.

(٢) الحديث مع اختلاف في اللفظ عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: مسلم ٢/ ٧٢٠ (كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس) ونصه فيه: «لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم». قال النووي في شرحه على مسلم ٧/ ١٣٠؟ «مُزعة لحم: بضم الميم وإسكان الزاي أي قطعة. قال القاضي قيل معناه يأتي يوم القيامة ذليلاً ساقطًا لاوجه له عند الله وقيل هو على ظاهره فيحشر ووجهه عظم لا لحم عليه عقوبة له وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه.

يوم القيامة»[1].

وقال عليه السلام: «أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم كأشد كوكب في السماء إضاءة»[2]. وقال يوم حنين: «شاهت الوجوه»[3] لوجوه المشركين.

وأمثال هذا كثير مما فيه وصف أهل السعادة بنهاية الحسن والجمال والبهاء، وأهل الشقاء بنهاية السوء والقبح والعيب.

وقد قال تعالى في وصفهم في الدنيا: **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾**، إلى قوله سبحانه: **﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾**. [سورة الفتح، الآية: ٢٩]. فهذه السيما في وجوه المؤمنين. والسيما: العلامة، وأصلها من الوسم، وكثيراً مايستعمل في الحسن، كما جاء في صفة

---

(١) الحديث مع اختلاف الألفاظ عن ابن مسعود رضي الله عنه في: سنن الترمذي ٢/ ٨٠ ـ ٨١ (كتاب الزكاة، باب من تحل له الزكاة)، سنن النسائي ٥/٧٢ ـ ٧٣ (كتاب الزكاة، باب حد الغنى)، سنن الدارمي ١/ ٣٨٦ (كتاب الزكاة، باب من تحل له الصدقة)، مسند أحمد (ط. المعارف) ٥/٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٦/ ١١٤، ٢٠٠.

(٢) الحديث مع اختلاف يسير في الألفاظ عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ٤/١١٨ (كتاب بدء الخلق، باب ماجاء في صفة الجنة)، ٤/ ١٣٢ (كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾، مسلم ٤/٢١٧٨ ـ ٢١٧٩ (كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة)، سنن الترمذي ٤/ ٨٥ (كتاب الجنة، باب ماجاء في صفة أهل الجنة)، سنن ابن ماجة ٢/ ١٤٤٩ (كتاب الزهد، باب صفة الجنة)، سننالدارمي ١٢/ ١٣٦، ١٤٥ ـ ١٤٧، ١٣/ ١٧٤، ٢٣٤.

(٣) الحديث عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في مسلم ٣/ ١٤٠٢ (كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين).

النبي ﷺ: وسيم قسيم(١).

وقال الشاعر:

غلام رماه الله بالحسن يافعًا   له سيماءُ لاتشق على البصر(٢)

وقال الله تعالى في صفة المنافقين: ﴿**ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم**﴾. [سورة محمد، الآية: ٣٠]. فجعل للمنافقين سيما أيضًا.

وقال: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر**﴾. [سورة الحج، الآية: ٧٢]. فهذه السيما وهذا المنكر قد [يوجد] في وجه من صورته المخلوقة وضيئة، كما يوجد مثل ذلك في الرجال والنساء والولدان، لكن بالنفاق قبح وجهه، فلم يكن فيه الجمال الذي يحبه الله، وأساس [ذلك] النفاق والكذب.

ولهذا يوصف الكذاب بسواد الوجه، كما يوصف الصادق ببياض الوجه، كما أخبر الله بذلك. ولهذا روى عن عمر بن الخطاب أنه أمر بتعزير شاهد الزور بأن يُسوَّد وجهه ويركب مقلوبا على الدابة، فإن العقوبة من جنس الذنب، فلما اسودَّ وجهه بالكذب وقلب الحديث سُوِّد وجهه وقلب في ركوبه، وهذا أمر محسوس لمن له قلب، فإن مافي القلب من النور والظلمة. والخير والشر، يسرى كثيرًا إلى الوجه والعين، وهما أعظم الأشياء ارتباطًا بالقلب.

---

(١) وردت صفة النبي ﷺ في كثير من الكتب منها ماجاء في سنن الترمذي ٥/٢٥٩ (كتاب المناقب، باب ماجاء في صفة النبي ﷺ) «.. عن أبي إسحاق قال سأل رجل البراء: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، مثل القمر». وذكر النووي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» (ط. المنيرية) ق١، جـ١، ص٢٥ في صفته ﷺ: «وجهه كالقمر ليلة البدر كأن وجهه القمر». وانظر صفته في كتابنا «الرسول ﷺ كأنك تراه».

(٢) في الأصل: غلام وضاه.. له سيما... والتصويب من «لسان العرب» (سوم). وذكر ابن منظور أن البيت لأسيد بن عنقاء الفزاري.

وقال ابن منظور: «قال ابن بري: وحكى على بن حمزة أن أبا رياش قال: لايروي بيت ابن عنقاء الفزاري: (غلام رماه الله بالحسن يافعًا) إلا أعمى البصيرة، لأن الحسن مولود، وإنما هو: رماه الله بالخير يافعًا».

ولهذا يروى عن عثمان ـ أو غيره[1] ـ أنه قال: «ماأسرَّ أحد بسريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه»، والله قد أخبر في القرآن أن ذلك قد يظهر في الوجه، فقال: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾. [سورة محمد، الآية: ٣٠]، فهذا تحت المشيئة ثم قال: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾. [سورة محمد، الآية: ٣٠]. فهذا مُقسم [عليه] محقق لاشرط فيه. وذلك أن ظهور مافي قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه، لكنه يبدو في الوجه بُدُوًا خفيًا يلعمه الله، فإذا صار خلقًا ظهر لكثير من الناس، وقد يقوى السواد والقَسَمَة حتى يظهر لجمهور الناس، وربما مسخ قردًا أو خنزيرًا، كما في الأمم قبلنا، وكما في هذه الأمة أيضًا، وهذا كالصوت المصرب إذا كان/ مشتملاً على كذب وفجور، فإنه موصوف بالقبح والسوء الغالب على مافيه من حلاوة الصوت.

فذو الصورة الحسنة إما أن يترجح عنده العفة والخلق الحسن، وإما أن يترجح فيه ضد ذلك، وإما أن يتكافآ.

فإن ترجّح فيه الصلاح كان جماله بحسب ذلك، وكان أجمل ممن لم يمتحن تلك المحنة.

وإن ترجّح فيه الفساد لم يكن جميلاً بل قبيحًا مذمومًا، فلا يدخل في قوله: إن الله جميل يحب الجمال.

وإن تكافأ فيه الأمران كان فيه من الجمال والقبح بحسب ذلك، فلا يكون محبوبًا ولامبغضًا.

والنبي ﷺ ذكر هذه الكلمة للفرق بين الكبر الذي يبغضه الله، والجمال الذي يحبه الله، فقال: «**لايدخل الجنة من [كان في] قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: يارسول الله: الرجل يحب أن [يكون] ثوبه حسنا ونعله حسنا، أفمن**

---

(١) ورد أيضًا عن علي بن أبي طالب: «وانظر كتابنا» فراسة المؤمن، قصص واقعية ترى فيه جميع الآيات التي أوردها الشيخ هنا وزيادة الأحاديث النبوية الصحيحة في الفراسة.

الكـبر ذلك؟ فقال: لا، إن الله جميل يحب الجمال، [الكبر] بطر الحق وغمط الناس». فأخبر أن تحسين الثوب قد يكون من الجمال الذي يحبه الله، كما قال تعالى: **﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾**. [سورة الأعراف، الآية ٣١]، فلا يكون حينئذ من الكبر.

وقد يُرَدُّ أنه [ليس] كل ثوب جميل وكل نعل جميل فإن الله يحبه، فإن الله يبغض لباس الحرير ويبغض الإسراف والخيلاء في اللباس، وإن كان فيه جمال، فإذا كان هذا في لبس الثياب، الذي هو سبب هذا القول، فكيف في غيره؟.

وتفسير هذا قوله ﷺ: «**إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

فعُلم أن مجرد الجمال الظاهر في الصور والثياب لاينظر الله إليه، وإنما ينظر إلى القلوب/ والأعمال، فإن كان الظاهر مزيَّنًا مجمَّلا بحال الباطن أحبه الله، وإن كان مقبَّحا مدنَّسًا بقبح الباطن أبغضه الله، فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل، ويبغض السيء الفاحش.

وأهل جمال الصورة يبتلون بالفاحشة كثيرًا، واسمها ضد الجمال، فإن الله سماه فاحشة وسوءًا وفسادًا وخبثًا، فقال تعالى: **﴿ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾**. [سورة الإسراء، الآية: ٣٢].

وقال: **﴿ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن﴾**. [سورة الأنعام، الآية: ١٥١].

وقال: **﴿أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾**. [سورة الأعراف، الآية: ٨٠].

وقال: **﴿وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾**. [سورة هود، الآية: ٧٨].

وقال: ﴿**ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث**﴾. [سورة الأنبياء، الآية: ٧٤].

وقال: ﴿**رَبِّ انصرني على القوم المفسدين**﴾. [سورة العنكبوت، الآية: ٣٠].

وقال: ﴿**وأمطرنا عليهم مطرًا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين**﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٨٤].

والفاحش والخبيث ضد الطيب والجميل، فإذا كان كذلك أبغضه الله ولم يحبه، ولم يكن مندرجًا في الجميل.

ونظير ذلك قوله ﷺ: «**إن الله لايحب الفحش ولاالتفحش**»[1]. وقوله: «**إن الله يبغض الفاحش البذيء**»[2]، فلو أفحش الرجل وبذأ بصوته الحسن كان الله يبغض ذلك.

ونفى المخنَّثين سنة من سنن النبي ﷺ الثابتة عنه في موضعين: في حق الزاني

---

(١) وردت هذه العبارة في حديثين مختلفين، أحدهما عن عائشة رضي الله عنها في: مسلم ٤/١٧٠٧ (كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يُرد عليهم). ومن الحديث قوله ﷺ: «**مه ياعائشة فإن الله لايحب الفحش**... **والحديث الثاني في: المسند (ط. المعارف) ٩/ ٢٥١ ـ ٢٥٢ عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش، فإن الله لايحب الفحش ولا التفحش**.. **الحديث. وفي: سنن الترمذي ٣/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ (كتاب البر والصلة، باب ماجاء في التفحش) عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «خياركم أحاسنكم أخلاقًا، ولم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا». وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»**.

(٢) الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه في: سنن الترمذي ٣/٢٤٤ (كتاب البر والصلة، باب ماجاء في حسن الخلق) ونصه: أن النبي ﷺ قال: «ماشيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، فإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء». قال الترمذي: «وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنس وأسامة بن شريك. هذا حديث حسن صحيح» وهو كما قال رحمه الله ورزقنا علمه.

والزانية اللذين لم يحصنا، كما قال: «**جلد مائةٍ وتغريب عام**»[1]، وفي حق المخنَّث وهو إخراجه من بين الناس، وذلك أن الفاحشة لاتقع إلا مع قدرة ومكنة الإنسان، لايطلب ذلك إلا إذا طمع فيه بما يراه من أسباب المكنة، فمن العقوبة على ذلك قطع أسباب المكنة. فإذا تغرَّب الرجل عن أهله وأعوانه وأنصاره الذين يعاونونه وينصرونه ذلَّت نفسه وانقهرت، فكان ذلك جزاءً نكالاً من الله من الجَلْد، ولأنه مفسد لأحوال من يساكنه فيُبعد عنهم، وكذلك المخنَّث يفسد أحوال الرجال والنساء جميعًا، فلا يسكن مع واحد من الصفنين.

وقد كان [من] سنة النبي ﷺ وسنة خلفائه التمييز بين الرجال والنساء والمتأهلين والعزَّاب، فكان [المندوب] في الصلاة [أن يكون] الرجال في مقدم المسجد [والنساء] في مؤخره.

وقال النبي ﷺ: «**خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها**»[2]. وقال: «**يامعشر النساء لاترفعن رؤوسكن حتى يرفع الرجال رؤوسهن من ضيق الأزر**»[3] وكان إذا سلَّم لبث هنيهة هو والرجال

---

(١) الحديث بهذا اللفظ عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما في: البخاري ٨/ ١٧٠ ـ ١٧١ (كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب البكران يجلدان وينفيان، باب من أمر غير الإمام بإقامة الحد نائبًا عنه)؛ مسلم ٣/ ١٣٢٤ ـ ١٣٢٥ (كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى). والحديث بمعناه عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم في مواضع أخرى في البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجة والدارمي وفي الموطأ والمسند.

(٢) رواه مسلم (١/ ٣٢٦) كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها وأبو داود (١/ ٢٥٥).

(٣) الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه في: مسلم ١/ ٣٢٦ (كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها. . .)، ونصه: عن سهل بن سعد قال: لقد رأيت الرجال عاقدي أزرهم في أعناقهم مثل الصبيان من ضيق الأزر خلف النبي ﷺ، فقال قائل: يامعشر النساء لاترفعن رؤوسكن حتى يرفع الرجال». وهو جزء من حديث طويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في: المسند (ط. الحلبي) ٣/ ٣ وأوله: أن رسول الله ﷺ قال: ألا أدلكم على مايكفّر الله به

لينصرف النساء أولاً، لئلا يختلط الرجال والنساء. وكذلك يوم العيد كان النساء يصلين [في] ناحية، فكان إذا قضي الصلاة خطب الرجال، ثم ذهب فخطب النساء، فوعظهن وحثّهن على الصدقة، كما ثبت ذلك في الصحيح[1]. وقد كان عمر بن الخطاب ـ وبعضهم يرفعه إلى النبي ﷺ قد قال [عن] أحد أبواب المساجد، أظنه الباب الشرقي: لو تركنا هذا الباب للنساء، فما دخله عبدالله بن عمر حتى مات.

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: «**لاتَحْقُقْنَ الطريق، وامشين في حافته**»[2] أي لاتمشين في حُقِّ الطريق[3]، وهو وسطه. وقال علي عليه السلام: مايغار أحدكم أن يزاحم امرأته العلوج بمنكبها[4]؟ يعني في السوق.

وكذلك لما قدم المهاجرون المدينة/ كان العزّاب ينزلون دارًا معروفة لهم متميزة عن دور المتأهلين، فلا ينزل العزب بين المتأهلين. وهذا كله لأن اختلاط أحد الصنفين بالآخر سبب الفتنة، فالرجال إذا اختلطوا بالنساء كان بمنزلة اختلاط

الخطايا.. ومنه: يامعشر النساء إذا سجد الرجال فاغضضن أبصاركن لاترين عورات الرجال من ضيق الأزر.

(١) الخبر جاء في حديث متفق عليه عن صلاة العيد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه في: البخاري ٢/٢١ ـ ٢٢ (كتاب صلاة العيدين، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد). وأوله: قام النبي ﷺ يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة ثم خطب.. الحديث. وهو في: مسلم ٢/٦٠٣ (كتاب صلاة العيدين، أول الكتاب)، وأورد مسلم حديثين آخرين عن ابن عباس رضي الله عنهما في الموضوع في نفس موضع الحديث السابق.

(٢) الحديث مع اختلاف في الألفاظ عن أبي أسيد الأنصاري رضي الله عنه في: سنن أبي داود ٤/٤٩٨ (كتاب الأدب، باب في مشي النساء في الطريق) وهو حديث حسن.

(٣) في الأصل: في حافة الطريق، وهو خطأ. وفي «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير الجزري ١/٢٤٤: «ليس للنساء أن يَحْقُقن الطريق، هو أن يركبن حُقَّها وهو وسطها».

(٤) هذا الأثر ورد ـ مع اختلاف في الألفاظ ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المسند (ط. المعارف) ٢/٣٥٤ ـ ٣٥٥.

النار والحطب، وكذلك العزب بين الآهلين فيه فتنة لعدم مايمنعه، فإن الفتنة تكون لوجود المقتضي وعدم المانع، فالمخنَّث الذي ليس رجلاً محضًا ولاهو امرأة محصنة، لايمكن خلطه بواحد من الفريقين، فأمر النبي ﷺ بإخراجه من بين الناس.

وعلى هذا المخنِّث من الصبيان وغيرهم لايُمَكَّن من معاشرة الرجال، ولاينبغي أن تعاشر المرأة المتشبهة بالرجال النساء، بل يُفرَّق بين بعض الذكران وبين بعض النساء إذا خيفت الفتنة، كما قال النبي ﷺ: «**مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع**»(١).

وقد نُهي عن مباشرة الرجل الرجل في ثواب واحد، وعن مباشرة المرأة المرأة في ثواب واحد، مع أن القوم لم يكونوا يعرفون التلوط ولا السحاق، وإنما هو من تمام حفظ حدود الله، كما أمر الله بذلك في كتابه. وقد روي أن عمر بلغه أن رجلاً يجتمع إليه [نفر] من الصبيان فنهى عن ذلك.

وأبلغ عن ذلك أنه نفى شبَّب به النساء، وهو نصر بن حجاج، لما سمع امرأة شبَّبت به وتشتهيه، ورأى هذا سبب الفتنة، فجز شعره، لعل سبب الفتنة يزول بذلك، فرآه أحسن الناس وجنتين، فأرسل به إلى البصرة، ثم إنه بعث يطلب القدوم إلى وطنه يذكر ألا ذنب [له]، فأبى عليه وقال: أما وأنا حيّ فلا(٢).

وذلك أن المرأة إذا أمرت بالاحتجاب وترك التبرج/ وغير ذلك مما هو من أسباب الفتنة بها ولها، فإذا كان في الرجال من قد صار فتنة للنساء أُمر أيضًا

---

(١) الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في سنن أبي داود ١/١٩٣ (كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة)؛ المسند (ط. المعارف) ١٠/٢١٧ ـ ٢١٨ (وانظر تعليق المحقق على الحديث).

(٢) ذكر ابن الجوزي خبر نصر بن حجاج في كتابه «سيرة عمر بن الخطاب» ص٧٤ ـ ٧٦، وأورد الخبر الأستاذان عمر وناجي الطنطاوي في كتابهما «أخبار عمر» ص٤٢٩ ـ ٤٣١، وذكرا في تعليقهما المراجع التي أوردت الخبر.

بمباعدة سبب الفتنة، إما بتغيير هيئته، وإما بالانتقال عن المكان الذي تحصل به الفتنمة فيه، لأنه بهذا يحصِّن دينه، ويحصِّن النساء دينهن، وبدون ذلك مع وجود المقتضي منه ومنهن لايؤمن ذلك، وهكذا يؤمر من يفتن النساء من الصبيان أيضًا.

وذلك أنه إذا احتيج إلى المباعدة التي تزيل الفتنة كان تبعيد الواحد أيسر من تبعيد الجماعة: الرجال أو النساء، إذ ذاك غير ممكن، فتُحفظ حدود الله، ويُجانب مايوجب تعدي الحدود بحسب الإمكان، وإذا كان هذا فيمن لاريبة فيه ولاذنب فكيف بمن يعرف بالريبة والذنب؟.

وهكذا المرأة التي تعرف بريبة تفتن بها الرجال تبعد عن مواضع الريب بحسب الإمكان، فإن دفع الضرر عن الدين بحسب الإمكان واجب، فإذا كان هذا هو السنة فكيف بمن يكون في جمعه من أسباب الفتنة ماالله به عليم، والرجل الذي يتشبَّه بالنساء في زيِّهن!؟.

واستعمال أسماء الجمال والحسن والزينة ونحو ذلك في الأعمال الصالحة، والقبح والشين والدنس في الأعمال الفاسدة، أمر ظاهر في الكتاب والسنة وكلام العلماء، مثل اسم الطيب والطهارة، والخبث والنجاسة، ومن ذلك مافي حديث أبي ذر المشهور، وقد رواه أبو حاتم بن حبَّان في صحيحه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حكمة آل داود: حق على العاقل أن يكون له ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يكون فيها مع أصحابه الذين يخبرونه عن ذات نفسه، وساعة يخلو فيها بلذته فيها يحلُّ ويجمل**»، / فذكر الحلَّ والجمال.

وهذا يشهد لقول الفقهاء في العدالة إنها صلاح الدين والمروءة. قالوا: والمروءة استعمال مايجمِّله ويزينه، وتجنب مايدنِّسه ويشينه، وهذا يرجع إلى الحسن والقبح في الأعمال، وأن الأعمال تكون حسنة وتكون قبيحة، وإن كان الحسن هو الملائم النافع، والقبيح هو المنافي.

فالشيء يكمل ويجمل ويحسن بما يناسبه ويلائمه، وينفعه ويلتذ به، كما يفسد

ويقبح بما ينافيه ويضره ويتألم به، والأعمال الصالحة هي التي تناسب الإنسان، والأعمال الفاسدة هي التي تنافيه.

ولهذا لما قال بعض الأعراب: إن مدحي زين وذمي شين، قال النبي ﷺ: ذاك [الله][1]، فمدحه يزين عنده لأنه مدحه بحق، وذمه يشينه لأنه حق[1].

وهذا الحسن والجمال الذي يكون عن الأعمال الصالحة في القلب يسري إلى الوجه، والقبح والشين الذي يكون عن الأعمال الفاسدة في القلب يسري إلى الوجه، كما تقدم. ثم إن ذلك يقوى بقوة الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة، فكلما كثر البر والتقوى قوي الحسن والجمال، وكلما قوي الإثم والعدوان قوي القبح والشين، حتى ينسخ ذلك ماكان للصورة من حسن وقبح. فكم ممن لم تكن صورته حسنة، ولكن من الأعمال الصالحة ماعظم به جماله وبهاؤه، حتى ظهر ذلك على صورته.

ولهذا يظهر ذلك ظهورًا بيِّنًا عند الإصرار على القبائح في آخر العمر عند قرب الموت، فنرى وجوه أهل السنة والطاعة كلما كبروا ازداد/ حسنها وبهاؤها، حتى يكون [أحدهم] في كبره أحسن وأجمل منه في صغره، ونجد وجوه أهل البدعة والمعصية كلما كبروا عظم قبحها وشينها، حتى لاتستطيع النظر إليها من كان منبهرًا بها في حال الصغر لجمال صورتها.

وهذا ظاهر لكل أحد فيمن يعظم بدعته وفجوره، مثل الرافضة وأهل المظالم

---

(١) زدت كلمة «الله» ليستقيم الكلام، وهي جزء من الحديث، والحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه في: سنن الترمذي ٥/٦٣ (كتاب تفسير القرآن، باب سورة الحجرات) وأوله: «قام رجل فقال: يارسول الله إن حمدي زين وإن ذمي شين. فقال النبي ﷺ: ذاك الله عز وجل» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وفي المسند (ط. الحلبي) ٣/٤٨٨ الحديث عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه وفيه أنه هو الذي خاطب النبي ﷺ من وراء الحجرات. وجاء الحديث مرة أخرى في المسند (ط. الحلبي) ٦/٣٩٣. وفي المسند في الموضعين في آخر الحديثين: «كلما حدَّث أبو سلمة».

والفواحش، من الترك ونحوهم، فإن الرافضي كلما كبر قَبُحَ وجهه وعظم شينه، حتى يقوى شبهه بالخنزير، وربما مُسِخ خنزيرًا وقردًا، كما قد تواتر ذلك عنهم. ونجد المردان من الترك ونحوهم قد يكون أحدهم في صغره من أحسن الناس صورة، ثم إن الذين يكثرون الفاحشة تجدهم في الكبر أقبح الناس وجوهًا، حتى إن الصنف الذي يكثر ذلك فيهم، من الترك ونحوهم، يكون أحدهم أحسن الناس صورة في صغره، وأقبح الناس صورة في كبره، وليس سبب ذلك أمرًا يعود إلى طبيعة الجسم، بل العادة المستقيمة تناسب الأمر في ذلك، بل سببه مايغلب على أحدهم من الفاحشة والظلم، فيكون مخنَّثًا ولوطيًا وظالمًا وعونًا للظلمة، فيكسوه ذلك قبح الوجه وشينه.

ومن هذا أن الذين قوي فيهم العدوان مسخهم الله قردة وخنازير من الأمم المتقدمة. وقد ثبت في الصحيح أنه سيكون في هذه الأمة أيضًا من يُمسخ قردة وخنازير[1]، فإن العقوبات والمثوبات من جنس السيئات والحسنات، كما قد بُيِّنَ ذلك في غير موضع.

ولاريب أن ماليس محبوبًا لله، من مسخوطاته وغيرها، تَزَيَّن في نفوس كثير من النـاس حتى يروها جميلة وحسنة، يجدون فيها من اللذات مايؤيد ذلك، وإن كانت اللذات متضمنة لآلام أعظم منها.

كما قال تعـالى: **﴿زُيِّنَ للنَّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب﴾**. [سورة آل عمران، الآية: ١٤].

---

(١) في صحيح البخاري ١٠٦/٧ (كتاب الأشربة، باب ماجاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه). حدثني أبو عامر ـ أبو مالك الأشعري ـ والله ماكذبني: سمع النبي ﷺ يقول: ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير.. الحديث وفيه: ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة.

وقال: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾. [سورة فاطر، الآية: ٨].

وقال تعالى: ﴿**وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وماكيد فرعون إلا في تبابٍ**﴾. [سورة غافر، الآية: ٣٧].

وقال: ﴿**وكذلك زيَّنَّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون**﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿**وإذ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنِّي جارٌ لكم**﴾. [سورة الأنفال، الآية: ٤٨].

وقد قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿**ولكنَّ الله حبَّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧].

فهو سبحانه يزيِّن لكل عامل عمله فيراه حسنا، وإن كان ذلك العمل سيئًا، فإنه لولا يراه حسنا لم يفعله، إذ لو رآه سيئًا لم يرده ولم يختره، إذ الإنسان مجبول على محبة الحسن وبغض السيء، فالحسن الجميل محبوب مراد، والسيء القبيح مكروه مبغض، والأعيان والأفعال المبغضة من كل وجه لاتُقصد بحال، كما أن المحبوبة من كل وجه لاتترك بحال. ولكن قد يكون الشيء محبوبًا من وجه مكروهًا من وجه، ويقبح من وجه [ويحسن من وجه]، ولهذا كان الزاني لايزني وهو مؤمن، والسارق لايسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن[1] كامل الإيمان، فإنه لو كان اعتقاده بقبح ذلك الفعل اعتقادًا تامًا لم يفعله

(١) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ١٣٦/٣ (كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه، ١٠٤/٧) (كتاب الأشربة، باب إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان)، ١٥٧/٨ (كتاب الحدود، باب لايشرب الخمر)، مسلم ٧٦/١ (كتاب الإيمان، باب لايزني الزاني وهو مؤمن) سنن الترمذي، وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه، سنن ابن ماجة ١٢٩٨/٢ ـ ١٢٩٩ (كتاب الفتن، باب النهي عن =

بحال، ولهذا كان [كل] عاصٍ لله تعالى جاهلاً، كما قال ذلك أصحاب محمد ﷺ، فإنه لو كان عالمًا حق العلم بما فعله، لم يفعل القبيح، ولم يترك الواجب، / بل قد زُيِّن لكل أمة عملهم.

لكن العاصي إذا كان معه أصل الإيمان، فإنه لايُزَيَّن له عمله من كل وجه، بل يستحسنه من وجه، ويبغضه من وجه، ولكن حين فعله يغلب تزيين الفعل.

ولذلك قال: ﴿**زين للناس حب الشهوات**...﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٤] الآية. فإن هنا شيئين: حب الشهوات، وأنه زين ذلك الفحش وحُسِّن، فرأَوْا تلك المحبة حسنة، فلذلك استقرت هذه المحبة عندهم، وتمتعوا بهذه المحبات، فإذا رأوا ذلك الحب قبيحًا لما يتبعه من الضرر، لم يستقر ذلك في قلوبهم، فإن رؤية ذلك الحب حسنًا يدعو إليه قبيحًا ينفِّر عنه.

وكذلك ذكر في الإيمان أنه حبَّبه إلى المؤمنين وزيَّنه في قلوبهم حتى رأوه حسنًا، فإن الشيء إذا حُبِّب وزُيِّن لم يترك بحال.

وهنا أخبر سبحانه أنه هو الذي حبَّب إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وفي الشهوات قال: ﴿**زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهوات**﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٤]، ولم يقل المُزَيِّن بل ذكر العموم.

[وقال تعالى]: ﴿**كذلك زينا لكل أمة عملهم**﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١٠٨].

وكما حذف المزيِّن هناك قال: ﴿**زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشهوات**﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٤]. فجعل المزيِّن نفس الحب لها، لم يجعل المزين هو المحبوب، كما أخبر أنه زين لكل أمة عملها، فإن المزيِّن نفس الحب لها، لم يجعل المزيِّن هو المحبوب [بل هو] حب الشهوات، فإن المزيِّن إذا كان نفس الحب والعمل لم ينصرف القلب عن ذلك، بخلاف مالو كان المزيِّن هو المحبوب، فقد يُزَيَّن الشيء

= النهبة)، سنن الدارمي ٢/ ١١٥ (كتاب الأشربة، باب في التغليظ لمن شرب الخمر) المسند (ط. المعارف) ١٣/ ٤١.

المحبوب، ولكن الإنسان لايحبه لما يقوم بقلبه من العلم بحاله والبغض.

ففرَّق بين التزيين المتصل بالقلب، وتزيين الشيء المنفصل عنه. فيه رد على القدرية الذين يجعلون التزيين المنفصل، وكذلك قوله: ﴿**زُيِّنَ لَهُ سُوء عمله فرآه حسنا**﴾. [سورة فاطر، الآية: ٨]،وهو سبحانه امتنَّ في الإيمان بشيئين: بأنه حبَّبه إلينا، وزيَّنه في قلوبنا. فالنعم تتم بهما: بالعلم، والمحبة.

/وقد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه لعن المخنَّثين من الرجال والمترجلات من النساء. وفي الصحيح أيضًا أنه لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال. وفي الصحيح أنه أمر بنفي المخنثين وإخراجهم من البيوت.

كما روى البخاري في صحيحه عن عكرمة عن ابن عباس قال: لعن النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال[1].

وفي رواية: لعن النبي ﷺ المخنَّثين من الرجال والمسترجلات[2] من النساء، وقال: أخرجوهم من بيوتكم. فأخرج النبي ﷺ فلانة[3] وأخرج عمر فلانًا[4].

فإذا كان الرجل الذي يتشبَّه بالنساء في لباسهن وزيِّهن وزينتهن معلونًا، قد لعنه رسول الله ﷺ، فكيف بمن يتشبَّه بهن في مباشرة الرجال له فيما يتمتع الرجال به بتمكينه من ذلك لغرض يأخذه أو لمحبته لذلك؟ فكلما كثرت مشابهته لهن كان أعظم للعنه، وكان ملعونًا من وجهين: من جهة الفاحشة المحرَّمة، فإنه

---

(١) الحديث عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في: البخاري ٧/١٥٩ (كتاب اللباس، باب المتشبهين بالنساء والمتشبِّهات بالرجال).

(٢) في الأصل: والمترجلات، والذي أثبته هو لفظ البخاري.

(٣) فلانة: هذه رواية للبخاري. ورواية الأصل: فلانًا.

(٤) رواية البخاري المشار إليها هنا هي في ٧/١٥٩ (كتاب اللباس، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت).

يُلعن على ذلك ولو كان هو الفاعل. ومن جهة تخنُّثه لكونه من جنس المفعول بهن.

فمن جعل شيئًا من التخنّث دينًا، أو طلب ذلك من الصبيان، مثل تحسين الصبي: صورته أو لباسه لأجل نظر الرجال، واستمتاعهم بذلك في سماع وغير سماع، أليس يكـون مبدِّلاً لدين الله، من جنس الذين إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء، أتقولون على الله مالاتعلمون؟! وإذا كانت فاحشة العرب المشركين كشف عوراتهم عند الطواف، لئلا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، / فكيف بما هو أعظم من ذلك؟!!

والمخنَّث قد يكـون مقصـوده معـاشرة النساء ومباشرتهن، وقد يكون تخنثه بمباشرة الرجال ونظرهم ومحبتهم، وقد يجمع الأمرين، وفي المتنسِّكين من الأقسام الثلاثة خلق كثير.

وهؤلاء شر ممن يفعل هذه الأمور على غير وجه التدين، فإنه يوجد في الأمم الجاهلية من الترك ونحوهم من يتشبَّه فيهم من النساء بالرجال، ومن يتشبه من الـرجـال بالنســاء خلق عظيم حتى يكون لنسائهم من الإمرة والملك والطاعة والـبروز للناس وغير ذلك مما هو من خصائص الرجال ماليس لنساء غيرهم، وحتى أن المـرأة تختـار لنفسهـا من شاءت من مماليكهـا وغيرهـم لقهرها للزوج وحكمها، ويكون في كثير من صبيانهم من التخنث وتقريب الرجال له وإكرامه لذلك أمر عظيم، حتى يغار بعض صبيانهم من النساء، وحتى يتخذهم الرجال كالسراري، لكن هم لايفعلون ذلك تدينا، فالذين يفعلون ذلك تدينا شرٌّ منهم، فإنهم جعلوا الفجور دينا، والفاحشة حسنة، [لا] لما في ذلك من ميل الطباع.

فهكـذا من جعل مجرد الصوت الذي تحبه الطباع حسنا في الدين فيه شبه من هؤلاء، لكن في المشركين من هذه الأمة من يتدين بذلك لأجل الشياطين، كما يوجد المشركين من الترك التتار وساحرهم الطاغوت صاحب الجِبت الذي تسميه

الترك البوق[٢]، وهو الذي تستخفه الشياطين وتخاطبه، ويسألها عما يريد، ويقرِّب لها القرابين من الغنم المنخنقة وغير ذلك، ويضرب لها بأصوات الطبول ونحو ذلك، ومن شرطه أن يكون مخنَّثًا، يؤتى كما تؤتى المرأة، فكلما كانت الأفعال أوْلى بالتحريم كانت أقرب إلى الشياطين.

وهذا الذي ذكرناه من أن الحسن الصورة والصوت، وسائر من أنعم الله عليه بقوة أو بجمال أو نحو ذلك، إذا اتَّقى الله فيه كان أفضل ممن لم يؤت مالم يمتحن فيه - فإن النعم محن - فإن أهل الشهوات من النساء والرجال يميلون إلى ذي الصورة الحسنة، / ويحبونه ويعشقونه، ويرغِّبونه بأنواع الكرامات، ويرهِّبونه عند الامتناع بأنواع المخوِّفات، كما جرى ليوسف عليه السلام وغيره. وكذلك جماله يدعوه إلى أن يطلب مايهواه، لأن جماله قد يكون أعظم من المال المبذول في ذلك.

وكذلك حَسَن الصوت قد يُدعى إلى أعمال في المكروهات، كما أن المال والسلطان يحصل بهما من المكنة مايُدعى مع ذلك إلى أنواع الفواحش والمظالم، فإن الإنسان لا تأمره نفسه بالفعل إلا مع نوع من القدرة، ولايفعل بقدرته إلا مايريده، وشهوات الغيّ مستكنَّة في النفوس، فإذا حصلت القدرة قامت المحنة، فإما شقي وإما سعيد، ويتوب الله على من تاب، فأهل الامتحان إما أن يرتفعوا وإما أن ينخفضوا. وأما تحرّك النفوس عن مجرد الصوت، فهذا أيضًا محسوس، فإنه يحركها تحريكًا عظيمًا جدًا بالتفريح والتحزين، والإغضاب والتخويف، ونحو ذلك من الحركات النفسانية، كما أن النفوس تتحرك أيضًا عن الصور بالمحبة تارةً وبالبغض أخرى، وتتحرك الأطعمة بالبغض تارة والنفرة أخرى، فتحرك الصبيان والبهائم عن الصوت هو من ذلك، لكن كل ماكان أضعف كانت الحركة به أشد، فحركة النساء به أشد من حركة الرجال، وحركة الصبيان

---

(١) وفي نشرة مجموع الرياض ١١٢/٣٥: «يقال لأحدهم (البوى) أي المخبث»: والكلمة أعجمية تركية وأما مابعدها فالأرجح أن يكون: «أي المخنَّث».

أشد من حركة البالغين، وحركة البهائم أشد من حركة الآدميين، فهذا يدل على أن قوة التحرّك عن مجرد الصوت لقوة ضعف العقل، فلا يكون في ذلك حمد إلا وفيه من الذم أكثر من ذلك، وإنما حركة العقلاء عن الصوت المشتمل على الحروف المؤلَّفة المتضمنة للمعاني المحبوبة، وهذا أكمل مايكون في استماع القرآن.

وأما التحرك بمجرد الصوت، فهذا أمر لم يأت الشرع بالندب إليه، ولاعقلاء الناس يأمرون بذلك، بل يعدُّون ذلك من قلة العقل، وضعف الرأي، كالذي يفزع عن مجرد الأصوات/ المفزعة المرعبة، وعن مجرد الأصوات المغضبة.

قال أبو القاسم[1]: «وقال النبي ﷺ: **«ماأذِن الله لشيء كأذَنه [لنبي] يتغنى بالقرآن»**. وروى حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ماأذن الله لشيء ماأذن الله لنبي يتغنى بالقرآن»**.

قال: «وقيل: إن داود عليه السلام كان يستمع لقراءته الجن والإنس، والوحش والطير إذا قرأ الزبور، وكان يُحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات سمعوا قراءته. وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري: «لقد أُعطي مزمارًا من مزامير آل داود»، وقال معاذ لرسول الله ﷺ: «لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيرا».

قلت: هذا القول لأبي موسى كان، لم يكن لمعاذ. ومضمون هذه الآثار استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وهذا مما لانزاع فيه. فالاستدلال بذلك على تحسين الصوت بالغناء أفسد من قياس الربا على البيع، إذ هو من باب تنظير الشعر بالقرآن.

وقال تعالى: **﴿وماعلمناه الشعر وماينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾**.

[سورة يس، الآية: ٦٩].

---

(١) في القشيرية (٢/٦٤٢).

وقال تعالى: ﴿**وماتنزلتْ به الشياطين* وماينبغي لهم ومايستطيعون* إنَّهُم عن السمع لمعزولون**﴾. [سورة الشعراء، الآيات: ٢١٠ ـ ٢١٢]. ﴿**ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون* وأنَّهُمْ يقولون مالايفعلون**﴾. [سورة الشعراء، الآيتان: ٢٢٥، ٢٢٦].

وقال تعالى: ﴿**وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون* ولابقول كاهن قليلاً ماتذكَّرون**﴾. [سورة الحاقة، الآية: ٤١،٤٢].

وهذا القياس مثل قياس سماع المكاء والتصدية ـ الذي ذمَّه الله في كتابه وأخبر أنه صلاة المشركين ـ على سماع القرآن الذي أمر الله به في كتابه، وأخبر أنه سماع النبيين والمؤمنين، وقياس لأئمة الصلاة ـ كالخلفاء الراشدين وسائر أئمة المؤمنين ـ بالمخنثين المغاني الذين قد يسمون الجد أو القوَّالين، وقياس للمؤذن الداعي إلى الصلاة وسماع القرآن بالمزمار الداعي إلى حركة المستمعين للمكاء والتصدية.

وقد روى الطبراني في معجمه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: أن الشيطان قال: يارب اجعل لي/ قرآنًا، قال: قرآنك الشعر. قال: اجعل لي مؤذِّنًا، قال: مؤذنك المزمار. قال: اجعل لي كتابةً. قال: كتابتك الوشم. قال: اجعل لي بيتًا. قال: بيتك الحمَّام. قال: اجعل لي طعامًا. قال: طعامك[1] مالم يذكر اسم الله عليه»[1]. فمن قاس قرآن الشيطان بقرآن الله، فالله يجازيه بما يستحقه.

وقد قال الله تعالى: ﴿**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا**﴾. [سورة مريم، الآية: ٥٩]. فهؤلاء يشتغلون بالشهوات عن الصلاة.

---

(١) في «الجامع الكبير» للسيوطي ٦٠٢/١: «قال إبليس لربه: يارب اهبطت آدم وقد علمت أنه سيكون كتاب ورسل، فما كتابهم ورسلهم؟ قال: رسلهم: الملائكة والنبيون منهم، وكتبهم: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قال: فما كتابي؟ قال: كتابك الوشم، وقراءتك الشعر، ورسلك الكهنة، وطعامك مالا يذكر اسم الله عليه، وشرابك كل مسكر، وصدقك الكذب، وبيتك الحمام، ومصايدك النساء، ومؤذنك المزمار، ومسجدك الأسواق» ـ طب (الطبراني) عن ابن عباس

ولهذا [فإن] من هؤلاء الشيوخ من يقصد الاجتماعات في الحمام، ويكون له فيها حال وظهور، لكون مادته من الشياطين، فإن الشيطان يظهر أثره في بيته وعند أوليائه وتأذين مؤذنه وتلاوة قرآنه، كما يظهر ذلك على أهل المكاء والتصدية.

وإذا كان السماع نوعين: سماع الرحمن، وسماع الشيطان، كان مابينهما من أعظم الفرقان. لكن الأقسام هنا أربعة: إما أن يشتغل العبد بسماع الرحمن دون سماع الشيطان، أو بسماع الشيطان دون سماع الرحمن، أو يشتغل بالسماعين، أو لايشتغل بواحد منهما.

فالأول: حال السابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان.

وأما الثاني: فحال المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿**وماكان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية**﴾. [سورة الأنفال، الآية: ٣٥]. وهو حال من يتخذ ذلك ديناً، ولايستمع القرآن. فإن كان يشتغل بهذا السماع شهوةً لادينًا، ويعرض عن القرآن، فهم الفجار والمنافقون إذا أبطنوا حال المشركين.

وأما الذين يشتغلون بالسماعين فكثير من المتصوفة.

والذين يعرضون عنهما على ماينبغي كثير من المتعربة.

فهذه النصوص المأثورة عن النبي ﷺ [التي] فيها مدح الصوت الحسن بالقرآن، والترغيب في هذا السماع، فيُحتج بها على المعرض عن هذا السماع الشرعي الإيماني، لايحتج بها على حسن السماع البدعي الشركي.

بل الراغبون في السماعين جميعًا، والزاهدون/ في السماعين جميعًا: خارجون عن محض الاستقامة والشريعة القرآنية الكاملة. هؤلاء معتدون، وهؤلاء مفرِّطون. وإنما الحق الرغبة في السماع الإيماني الشرعي، والزهد في السماعي الشركي البدعي.

ثم ذكر أبو القاسم[1] حكاية أبي بكر الرقِّي[2] في الغلام الذي حدا بالجِمال حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم، فلما حطَّ عنها ماتت، وحدا بجمل فهام على وجهه وقطع حباله. قال الرقِّي[2]: ولم أظن أني سمعت صوتًا أطيب منه ووقعت لوجهي، حتى أشار عليه بالسكوت فسكت، فقال: حدثنا أبو حاتم السجستاني، حدثنا أبو نصر السراج، قال: حكى الرقى.

قلت: مضمون هذه الحكاية أن الصوت البليغ في الحُسْنِ قد يحرِّك النفوس تحريكًا عظيمًا خارجًا عن العادة، وهذا مما لاريب فيه، فإن الأصوات توجب الحركات الإرادية بحسنها، وهي في الأصل ناشئة عن حركات إرادية، ويختلف تأثيرها باختلاف نوع الصوت وقدره، بل هي من أعظم المحرِّكات أو أعظمها، وإذا اتفق قوة المؤثر واستعداد المحل قوي التأثير، فالنفوس المستعدة لصغرٍ أو أنوثة أو جزع أو نحوه، أو لفراغ وعدم شغل أو ضعف عقل: إذا اتصل بها صوت عظيم حسن قوي أزعجها غاية الإزعاج، لكن هذا لايدل على جواز ذلك، ولا فيه مايوجب مدحه وحسنه، بل مثل هذا أدلَّ على الذم والنهي منه على الحمد والمدح، فإن هذا يفسد النفوس أكثر مما يصلحها، ويضرها أكثر مما ينفعها، وإن كان فيه نفع فإثمه أكثر من نفعه.

وقد قال الله للشيطان: ﴿**واستفزز من استطعت منهم بصوتك**﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٦٤]. فالصوت الشيطاني يستفز بني آدم. وقال النبي ﷺ: «**إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين**»[3] وذكر صوت النعمة وصوت المعصية،

---

(١) الكلام التالي هو تلخيص لما في «القشيرية» ٢/٦٤٢ - ٦٤٣.

(٢) في الأصل: الدقي. وهو تحريف. وفي القشيرية أنه: أبو بكر محمد بن داود الدينوري الرقِّي.

(٣) رواه الترمذي (٢/٢٣٧) كتاب الجنائز وقال هذا حديث حسن صحيح ورواه البغوي في شرح السنة ٥/٤٣١) وفيه محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى وفيه ضعف وذكره الهيثمي ونسبه إلى البزار ورواه أبو يعلى.

ووصفهما بالحمق والفجور، وهو الظلم والجهل.

وقال لقمان لابنه: ﴿**اقصد في مشيك واغضض من صوتك**﴾. [سورة لقمان، الآية: ١٩]، والمغنِّي بهذه الأصوات لم يغض من صوته، والمتحركون بها/ الراقصون لم يقصدوا في مشيهم، بل المصوِّتون أتوا بالأحمق الجاهل الظالم الفاجر من الأصوات، والمتحركون أتوا بالأحمق الجاهل الظالم الفاحش من الحركات، وربما جمع الواحد بين هذين النوعين، وجعل ذلك من أعظم العبادات.

الجمـــال

فضله . حقيقته . أنواعه

تأليـف

العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١هـ

دراسـة وتحقيـق

إبراهيم بن عبدالله الحازمي

عفا الله عنه وسدد خطاه

(آمـــين)

قال العلامة المحقق ابن قيم الجوزية:

ذكر فضيلة الجمال، وميل النفوس إليه على كل حال

اعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر وباطن، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته، كما في الحديث الصحيح: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[1]، وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمالٍ فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست روحه من تلك الصفات، فإن المؤمن يعطي مهابة وحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه. وهذا أمر مشهود بالعيان فإنك ترى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة وإن كان أسود أو غير جميل، ولاسيما إذا رزق حظا من صلاة الليل فإنها تنور الوجه وتحسنه. وقد كان بعض النساء تكثر صلاة الليل فقيل لها في ذلك فقالت: إنها تحسن الوجه وأنا أحب أن يحسن وجهي. ومما يدل على أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه.

فصـــل

وأما الجمال الظاهر فزينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿**يزيد في الخلق مايشاء**﴾. قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مفطورة على استحسانه. وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من كان**

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤) في البر والصلة ورواه ابن ماجة رقم (٤١٤٣) في الزهد وأحمد (٢/ ٢٨٥ و٥٣٩).

في قلبه مثقال ذرة من كبر قالوا: يارسول الله الرجل يحب أن تكون نعله حسنة وثوبه حسنًا أفذلك من الكبر؟ فقال: لا. إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1]. فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس النظر إليه بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم. ولا بأس بهذا إذا كان لله. وعلامته أن يكون لنفسه أشد ازدراءً واستصغارًا منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة.

فصـــل

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضًا على عبده يوجب شكرًا، فإن شكره بتقواه وصيانته ازداد جمالاً على جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه قلبه شينًا ظاهرًا في الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وحشةً وقبحًا وشينًا، وينفر عنه من رآه، فكل من لم يتق الله عز وجل في حسنه و جماله انقلب قبحًا وشينًا يشينه به بين الناس، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره.

[ياحسن الوجه توق الخنا ... لا تبدلن الزين بالشين
وياقبيح الوجه كن محسنًا ... لا تجمعن بين قبيحين]

وكان النبي ﷺ يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبدالله ـ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة[2] ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أنت امروء قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك**»[3].
وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرآة، فإن رأى صورته حسنة لم يشنها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة و[قبح]

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) وأبو داود والترمذي في الإيمان. باب تحريم الكبر وبيانه.
(٢) وقال عنه عبدالملك بن عمير: رأيت جريرًا كأن وجهه شقه قمر.
(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس وفيه ضعف

الفعل. ولما كان الجمال من حيث هو محبوبًا للنفوس معظمًا في القلوب لم يبعث الله نبيًا إلا جميل الصورة حسن الوجه كريم الحسب حسن الصوت، كذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وكان النبي ﷺ أجمل خلق الله وأحسنهم وجهًا كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه وقد سئل أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا [بل] مثل القمر[1]. وفي صفته ﷺ: كأن الشمس تجري في وجهه يقول واصفه لم أر قبله ولا بعده مثله[2]. وقال ربيعه الجرشي: قسم الحسن نصفين: فبين سارة ويوسف نصف الحسن، ونصف [الحسن] بين سائر الناس. وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه رأى يوسف ليلة الإسراء وقد أُعطي شطر الحسن[3]. وكان رسول الله ﷺ يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه حسن الإسم، وكان يقول: «**إذا أبردتم إليَّ بريدًا فليكن حسن الوجه حسن الإسم**»[4] وقد روى الخرائطي من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: من آتاه الله وجهًا حسنًا واسمًا حسنًا وخُلُقًا حسنًا وجعله في موضع غير شائن له فهو من صفوة الله من خلقه وقال وهب: قال داود: يارب أي عبادك أحب إليك؟ قال: مؤمن حسن الصورة. قال: فأي عبادك أبغض إليك؟ قال كافر قبيح الصورة. ويُذكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان ينتظره نفرٌ من أصحابه على الباب فجعل ينظر في الماء ويسوي شعره ولحيته ثم خرج إليهم فقلت: يارسول الله وأنت تفعل هذا؟ قال: «**نعم إذا خرج**

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه، ورواه مسلم عن جابر بن سمرة وانظر تخريجه في كتابنا الرسول ﷺ كأنك تراه

(٢) رواه الترمذي وانظر كتابنا «النبي ﷺ كأنك تراه».

(٣) رواه مسلم وأحمد في مسنده

(٤) رواه البزار في مسنده ص: ٢٤٢. وقال الهيثمي: (صحيح) وأقره السيوطي في «اللآلىء» وهو كما قال: فرجاله رجال الصحيح ورواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص: (٢٧٤) والعقيلي في الضعفاء والبغوي في شرح السنة ١٢/٣٢٧ - ٣٢٨.

الرجل إلى إخوانه فليهيء من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال»[1] وقال يحيى بن أبي كثـير: دخل رجل على معاوية غمصًا يعني رمص العينين فحط من عطائه فقال: ما يمنع أحدكم إذا خرج من منزله أن يتعاهد أديم وجهه؟ وكانت عائشة بنت طلحة من أجمل أهل زمانها أو أجملهم فقال أنس بن مالك: والله مارأيت أحسن منك إلا معاوية على منبر رسول الله ﷺ فقالت: والله لأنا أحسن من النار في عين المقرور في الليلة القارة. ودخل عليها أنس يومًا في حاجة فقال: إن القوم يريدون أن يدخلوا عليك فينظروا [إلى] جمالك قالت: أفلا قلت لي فألبس ثيابي.

وكان مصعب بن الزبير من أجمل الناس وكان يحسد الناس على الجمال فبينما هو يخطب يومًا إذ دخل ابن جودان من ناحية الأزد وكان جميلاً، فأعرض بوجهه عن تلك الناحية إلى ناحيةٍ أُخرى، فدخل ابن حمران من تلك الناحية، وكان جميلاً، فرمى ببصره إلى مؤخرة المسجد، فدخل الحسن البصري وكان من أجمل الناس، فنزل مصعب عن المنبر. وخرج نسوة يوم العيد ينظرون إلى الناس فقيل لهم: من أحسن من مر بكن؟ قلن: شيخ عليه عمامـة سوداء يعنـين الحسن البصري، وأخذ مصعب بن الزبير رجلاً من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه، فقال الرجل: أيها الأمير ما أقبح من أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يُستضاء به فأتعلق بأطرافك وأقول: يارب سل مصعبًا فيم قتلتني؟ فقال مصعب: أطلقوه. فقال الرجل أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي خفض فقال مصعب: أعطوه مائة ألف درهم فقال: إني أُشهد الله أن لعبد الرحمن بن قيس الرُّقيَّات[2] نصفها قال مصعب: ولم ذلك؟ قال لقوله:

إنـما مصـعـب شهـاب من الـد ـــه تجلت عن وجـهـه الـظلماء

---

(١) تقدمت الفقرة الأخيرة من هذا الحديث أما القصة فلم أجدها في مابين يدي من كتب الحديث وقول المؤلف في أولها «ويذكر» يدل على الضعف.

(٢) كذا في النسختين والذي في الأغاني وغيره إن اسمه عبيد الله.

فضحك مصعب وقال: إن فيك لموضعًا للصنيعة، وأمره بلزومه.

وقال الزبير بن بكار: حدثنا مصعب الزبيري، حدثنا عبدالرحمن بن أبي الحسن قال: خرج أبوحازم يرمي الجمار ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم، فبينما هو يمشي وهم معه إذ نظر إلى فتاة مستترة بخمارها ترمي الناس بطرفها يمنة ويسرة، وقد شغلت الناس وهم ينظرون إليها مبهوتين، وقد خبط بعضهم بعضًا في الطريق، فرآها أبوحازم فقال: ياهذه اتقي الله فإنك في مشعرٍ من مشاعر الله عظيم، وقد فتنت الناس، فاضربي بخمارك على جيبك فإن الله عز وجل يقول: ﴿**وليضربن بخمرهن على جيوبهنَّ**﴾ فأقبلت تضحك من كلامه وقالت: إني والله

من اللآء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا[1]

فأقبل أبوحازم على أصحابه وقال: تعالوا ندعو الله أن لا يعذب هذه الصورة الحسناء بالنار، فجعل يدعو وأصحابه يؤمنون[2].

وقال ضمرة بن ربيعة، عن عبدالله بن شوذب: دخلت امرأة جميلة على الحسن البصري فقالت: ياأبا سعيد ينبغي[3] للرجال أن يتزوجوا على النساء؟ قال: نعم قالت: وعلى مثلي؟ ثم أسفرت عن وجهٍ لم يُرَ مثله حسنًا وقالت: ياأباسعيد لا تفتوا الرجال بهذا. ثم ولت فقال الحسن: ما على رجلٍ كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا؟

وقال عبدالملك بن قريب[4]: كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون: قد جاءت قد جاءت. فتحول الناس فقمت معهم فإذا جارية قد وردت

---

(١) البيت للعرجي.

(٢) في الأغاني وتحفة العروس: قال وبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: أما والله لو كان بعض بغضاء أهل العراق لقال لها: اغربي قبحك الله ولكنه ظرف عباد الحجاز.

(٣) في تحفة العروس: أيحل وهو الأنسب هنا.

(٤) هو الأصمعي

الماء ما رأيت مثلها قط في حسن وجهها وتمام خلقها، فلما رأت تشوُّف الناس إليها أرسلت برقعها فكأنه غمامة غطت شمسًا فقلت: لم تمنعيننا النظر إلى وجهك هذا الحسن؟ فأنشأت تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كلُّه أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ونظر إليها أعرابي فقال: أنا والله ممن قل صبره ثم قال:

أوحشية العينين أين لك الأهل ... أبا الحزن حلوا أم محلهم السهل
وأية أرض أخرجتك فإنني ... أراك من الفردوس إن فتش الأصل
قفي خبرينا ما طعمت وما الذي ... شربت ومن أين استقل بك الرحل
لأن علامات الجنان مبينة ... عليك وإن الشكل يشبهه الشكل
تناهيت حسنًا في النساء فإن يكن ... لبدر الدجى نسل فأنت له نسل

وقال آخر[1]:

يامنسي المحزون أحزانه ... لما أتته في المعزينا
استقبلتهن بتمثالها ... فقمن يضحكن ويبكينا
حق لهذا الوجه أن يزدهي ... عن حزنه من كان محزونا

وقال آخر:

أنيري مكان البدر إن أفل البدر ... وقومي مقام الشمس ماستأخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة ضوؤها ... وليس لها منك التبسم والثغر

وقال آخر:

رقادي ياطرفي عليك حرام ... فخل دموعًا فيضهن سجام
ففي الدمع إطفاء لنار صبابة ... لها بين أحناء الضلوع ضرام

---

(١) هو أبو نواس ورواية الأغاني:

يامنسي المأتم أحزانه ... لما أتاهم في المعزينا

وياكبدي الحري التي قد تصدعت ... من الوجد ذوبي ما عليك ملام
وياوجه من ذلت وجوه أعزه ... له وزهى عزًا فليس يرام
أجر مستجيرًا في الهوى بك باسطًا ... إليك يديه والعيون نيام

وذكر الخرائطي عن بعض العلويين قال: بينا أنا عند الحسن بن هانيء[1] وهو ينشد:

ويلي على سود العيون ... النهد الضمر البطون
الناطقات عن الضميـ ... ـر لنا بألسنة الجفون

فوقف عليه أعرابي ومعه ابن فقال: أعد علي فأعاد عليه فقال: ياابن أخي ويلك أنت وحدك من هذا؟ ويلي أنا وأنت، وويل ابني هذا، وويل هذه الجماعة، وويل جيراننا كلهم. وقال الخرائطي: حدثنا يموت بن المزرع، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا محمد بن سلمة قال: حدثني أبي قال: أتيت عبدالعزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجن للنبي ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدؤها فوجدته مستلقيًا يتغنى:

فما روضة بالحزن طيبة الثرى ... يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهنا ... وقد أُوقدت بالمندل الرطب نارها
من الخفرات البيض لم تلق شقوة ... وبالحسب المكنون صاف نجارها
فإن برزت كانت لعينيك قرة ... وإن غبت عنها لم يغمك عارها

فقلت له: [أَتُغنّي] أصلحك الله وأنت في جلالك وشرفك؟ فقال: أما والله لأحملنها ركبان نجد قال: فوالله ماأكثرت بي وعاد يتغنّى:

فما ظبيةٌ أدْماء خفاقة الحشا ... تجوب بظلفيها متون الخمآئل
بأحسن منها إذ تقول تدلُّلاً ... وأدمعها تذرين حشوا المكاحل
تمتَّعْ بذا اليومِ القصير فإنه ... رهينٌ بأيام الصدود الأطاول

(١) هو أبو نواس

قال: فندمت على قولي وقلت له: أصلحك الله أتحدثني في هذا بشيء؟ قال: نعم حدثني أبي قال: دخلت على سالم بن عبدالله بن عمر رضي الله عنهم وأشعب يغنيه:

مغـيريةٌ كالبـدر سنـة وجـهها ... مُطهـرة الأثـواب والعـرض وافر
لها حسـبٌ زاكٍ وعـرض مهـذب ... وعن كل مكـروه من الأمـر زاجرُ
من الخفـرات البيض لم تلق ريبـة ... ولم يستملهـا عن تقى الله شاعـر

فقال له سالم: زدني فغنّاه:

أَلَمـت بنـا والـليل داجٍ كأنـه ... جنـاحُ غُراب عنـه قد نفض القطرا
فقـلت أعـطارٌ ثوى في رجـالـنـا ... ومـااحتملت ليلي سوى طيبها عطرا

فقال له سالم: والله لولا أن تتداوله الرواة لأجزلت جآئزتك فإنك من هذا الأمر بمكان.

قال الخرائطي: حدَّثنا العباس بن الفضل، عن بعض أصحابه قال: حججت سنة من السنين فإني لبالرَّبذة[1] إذ وقفت علينا جارية على وجهها برقعٌ قالت: يامعشر الحجيج نفرٌ من هذيل، ذهب بنعمهم السيل، وقعدت بهم الأيَّام، مابهم نُجْعة، فمن يراقب فيهم الدار الآخرة ويعرف لهم حق الأخوة؟ جزاه الله خيراً قال: فرضخنا لها فقلت لها: هل قلت في ذلك شيئا؟ فأنشأت تقول:

كَفُّ الـزمـان توسـدتـنـا عنـوة ... شلّت أنـامـلهـا عن الأعـراب
قومٌ إذا حل الـعُـفـاة ببـابهـم ... ألـقـوا[2] نوافـلهم بغـير حسـاب

فقلنا لها: لو أمتعتنا بالنظر إلى وجهك، فكشفت البرقع عن وجهٍ لا والله لاتهتدي العقول لوصفه، فلما رأتنا قد بهتنا لحسنها أنشأت تقول:

---

(١) قال ياقوت: الربذة: قرية من قرى المدينة.

(٢) في ن: الفوا

الـدهـرُ أبـدى صفحـةً قد صلنـا ... أبـواي قبـل تمرُّس الأيام
فتـمـتـعـوا بعـيونـكـم في حسنهـا ... وانهوا جوارحـكـم عن الآثـام

ثم انصرفت. وكان محمد بن حميد الطوسي يهوى جاريةً فأرسل إليها مرة أترُجةً فبكت بكـآء شديدًا، فقيل [لها]: يوجّه إليك من تحبينه بهديةٍ فتبكين هذا البكآء؟ فغنت:

أهـدى له أحـبـابُـه أتـرُجـة ... فبكي وأشفق من عيافـة زاجـر[1]
خاف الـتـلوُّن والـفـراقَ لأنها ... لونـان باطـنُهـا خلافُ الـظاهـر

فلما جآءه الرسول أخبره عنها بما أغاظه فكتب إليها[2]:

ضيّعتِ عهـدَ فتى لغيبـك حافظٍ ... في حفـظه عجبٌ وفي تضييعـكِ
وصـددتِ عنـه ومـا له من حيلةٍ ... إلا الـوقـوفُ إلى أوان رجـوعـك
إن تقـتـليه وتـذهـبي بحـياتـه ... فبحسن وجهـك لابحسن صنيعـك

فلما وافتها الرقعة بكت حتى رحمها من حولها ثم اندفعت، تقول:

هل لعـيني إلى الـرُّقـاد شفـيعُ ... إن قلبـي من الـسـقـام مروع
لاتـراني بخـلـتُ عنـك بدمـعٍ ... لا وحـقّ الحـبـيب مالي دمـوعُ
إن قلبـي إلـيك صبٌّ حزينٌ ... فاسـتراحـت إلى الأنـين الـضلوع
ليس في الـعـطف ياحـبيبي بدعٌ ... إنـما هجـر من يحب بديع

ثم كتبت إليه: أنا مملوكة لا أملك من أمري شيئًا، فإن كان لك فيَّ حاجة فاشترني لأكون طوع يديك، فاشتراها فمكثت عنده وكانت من أحظى إمائه حتى قتل في وقعة بابك الخرمي، فكانت لتمثل في ريآئه بقول أبي تمام:

محمـدُ بنُ حميد أخـلقـت رممـه ... أريق مآء المـعـالي مذ أريق دمُـهْ
رأيتُـه بِنـجـاد الـشـيق محتبـيًا ... في النـوم بدرًا جلت عن وجهه ظُلَمُهْ

---

(١) عيافة الطير: زجرها وهو أنه تعتبر بأسمائها ومساقطها بأسمائها ومساقطها فتسعد أو تتشآءم.

(٢) الشعر لابن أبي عيينة.

فقلت والـدمـع من حزنٍ ومن كمد   يجري انسكابًا على الخدين منسجمة
ألم تمت ياشـقـيق [النفس] مذ زمن   فقـال لي لم يمت من لم يمت كرمـه

وهـذا فصل في ذكر حقيقة الحسن والجمال ماهي[1]. وهذا أمر لايدرك إلا بالوصف وقد قيل: إنه تناسب الخلقة واعتدالها واستواؤها. ورب صورةٍ متناسبةِ الخلقـة، وليست في الحسن هنـاك. وقـد قيل: الحسنُ في الـوجه والملاحة في العينـين. وقيل الحسنُ أمـرٌ مركَّبٌ من أشيآء: وَضآءة وصاحة وحسن تشكيل وتخـطيط ودمـوية في البشرة. وقيل: الحسنُ معنى لاتنـالـه العبارة ولايحيط به الوصف، وإنما للناس منه أوصاف أمكن التعبير عنها. وقد كان رسول الله ﷺ في الذروة العُليا منه، ونظرت إلية عائشة رضي الله عنها يومًا ثم تبسمت، فسألها مم ذاك؟ فقالت: كأن أبا كبير الهذلي إنما عناك بقوله:

ومُـبرًا من كل غُبَّر حيضَـة   وفـسـادِ مرضـعـةٍ وداءٍ مُغْـيل

---

(١) قال ابن حزم في كتابه «مداراة النفوس» ص: ٥٦ الحلاوة رقة المحاسن، ولطف الحركات، وخفة الإشارات وقبول النفس لأعراض الصور وإن لم تكن ثـمّ صفات ظاهرة. القوام جمال كل صفة على حدتها، ورب جميل الصفات، على انفراد كل صفة منها بارد الطلعة، غير مليح، ولاحسن، ولارائـع، ولا حلو؟ والـروعة بهاء الأعضاء الظاهرة، مع جمال فيها، وهي أيضًا الفراهة (الملاحة والحسن أو هي النشاط والحذف) والعتق. الحسن هو شيء ليس له في اللغة اسم يعبَّر به عنه، ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه، وهو بُرْد مكسو على الوجه وإشراق يستميل القلوب نحوه، فتجتمع الآراء على استحسانه. وإن لم تكن هناك صفات جميلة ـ فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله، حتى إذا تأملت الصفات إفرافًا لم تر طائلاً، وكأنه شيء في نفس المرئي يجده نفس الرائي، وهذا أجل مراتب الصباحة، ثم تختلف الأهواء بعد هذا، فمن مفضـل للروعـة ومن مفضل للحلاوة، وماوجدنا أحدًا قط يفضل القوام المفرد الملاحة اجتماع شيء فشيء مما ذكرنا. انتهى

(١) غبر الحيض: بقاياه وأضاف الفساد إلى المرضعة لأنه أراد الفساد الذي يكون من قبلها والمغيل وهو أن تغشى المرأة وهي ترضع فذلك اللبن الغيل ويروى وداء معضل. قاله التبريزي في شرح الحماسة. والحديث في الحلية لأبي نعيم.

وإذا نظرت إلى أسِرَّةِ وجـــهـــه برَقَـــت كبرق الـعـــارض المـتـهـلل

ولقي بعضُ الصحابة راهبًا فقال: صف لي محمدًا كأني أنظر إليه فإني رأيت صفته في التوراة والإنجيل فقال: لم يكن بالطويل البائن ولابالقصير، فوق الربعة أبيض اللون مُشرَبًا بالحمرة جعدًا ليس بالقطِط، جُمَعَته إلى شحمة أذنه، صلت الجبين، واضح الخد أدعج العينين، أقنى الأنف، مُفلَّج الثنايا، كأن عنقه إبريق فضة، ووجه كدارة القمر. فأسلم الراهب[1]توفي صفة هند بن أبي هالة له ﷺ: لم يكن بالـطويل الممغط، ولابالقصير المتردد، كان ربعة من الرجال، ولم يكن بالجعد القطط ولابالبسط، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم وكان في الوجه تدوير، أبيض مُشرب أدعـج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، شثن الكفـين والقدمين، دقيق المسربة إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت جميعًا. كأن الشمس تجري في وجهه. وكان ﷺ مع هذا الحسن قد أُلقيت عليه المحبةُ والمهابة، فمن وقعت عليه عيناه أحبه وهابه[2] وكمل الله سبحانه له مراتب الجمال ظاهرًا وباطنًا. وكان أحسن خلق الله خَلْقًا وخُلُقًا، وأجملَهم صورة

(١) البائن المفرط في الطول، والقطط: الشديد الجعودة كالزنوج بل شعره عليه الصلاة والسلام بين الجعودة والسبوطة كما سيأتي بعد هذا والجملة: الشعر المجموع على الرأس وقيل الشعر مطلقًا. والصلت الـواسع: والأدعج: الشديد سواد العين في شدة بياضها. والقنا طول الأنف ودقة أرنبته وحدب في وسطه: والحديث انظره في كتابنا «الرسول ﷺ كأنك تراه» وهو حديث لابأس به، شواهده كثيرة ومتعددة

(٢) قال الأصمعي في تفسير غريب هذه الأوصاف ماملخصه: الممغط الذاهب طولاً، والمتردد: الداخل بعضه في بعض، وأما المطهم فالبادن (أي الضخم) الكثير اللحم، والمكلثم: المدور الوجه، والمشرب: الذي في بياضه حمرة، والأهدب، الطويل الأشفار، المشاش: يريد رؤوس المنـاكب، والكتد: مجتمع الكتفين وهو الكاهل، والشثن: الغليظ الأصابع، والمسربة: هو الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة، والتقلع: أن يمشي بقوة، والصبب: الحدور، وحديث ابن أبي هالة رواه الترمذي في الشمائل. وغيره وانظر تخريجه في كتابنا الرسول ﷺ كأنك تراه.

ومعنىً. وهكـذا كان يوسف الصديق ﷺ. ولهذا قالت امرأةُ العزيز للنسوة لما أرتهنَّ إياه ليعـذرنها في محبته ﴿**فذلكن الذي لُمتنني فيه**﴾[1]. أي هذا هو الذي فتنت به وشغفت بحبه، فمن يلومني علي محبته وهذا حسن مظنره؟ ثم قالت: ﴿**وَلَقَدْ راودته عن نفسه فاستعصم**﴾[1]. أي فمع هذا الجمال، فباطنه أحسنُ من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحبُّ وإن عيب محبوبه فلا يجري على لسانه إلا محاسنه ومدحه. ويتعلق بهذا قوله تعالى في صفة أهل الجنــة: ﴿**ولقّاهم نضرة وسرورا**﴾[2]. فجمّـل ظواهـرهم بالنضرة وبـواطنهم بالسرور ومثله قولـه: ﴿**وُجـوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ. إلىٰ ربّها ناظرة**﴾[3]. فإنه لاشيء أشهى إليهم وأقــر لعيونهم، وأنعم لبـواطنهم من النـظر إليه فنضّر وجـوههم بالحسن، ونعّم قلوبَهم بالنظر إليه. وقريب منه قوله تعالى: ﴿**وحُلُّوا أساور من فضـة**﴾[4] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿**وسقاهم ربهم شرابًا طَهُورًا**﴾[4]. أي مطهر لبواطنهم من كل أذى. فهذا زينة الباطن. ويشبه قوله تعالى: ﴿**يابني آدم قد أنزلنا عليكُم لباسًا يُواري سوآتاكم وريشًا**﴾ [5] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿**ولباس التقوى ذلك خيرٌ**﴾[6] فهذا زينة الباطن. وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالى: ﴿**إنَّا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظًا**﴾[6] فزيَّن ظاهرها بالمصابيح، وباطنها بحفظها من الشياطين. وقريبٌ منه قوله تعالى: ﴿**وتزودوا فإن خير النـزاد التقـوى**﴾[7] فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن. وهذا من زينة

(١) سورة يوسف: ٣٢.

(٢) سورة الدهر: ١١.

(٣) سورة القيامة: ٣٢ - ٣٣.

(٤) سورة الدهر: ٢١.

(٥) سورة الأعراف: ٢٦.

(٦) سورة الصافات الآيتان ٦، ٧. وكانت في النسختين ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا وهو جمع من آيتين أخر بين كل منهما من سورة.

(٧) سورة البقرة: ١٩٧.

القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة. ومنه قوله تعالى لآدم: ﴿إنَّ لك ألا تجوع فيهـا ولاتعـرى. وأنَّك لاتظمأ فيها ولاتضحى﴾[1] فقابل بين الجوع والعُرْي دون الجوع والظمإ، وبين الظمإ واضحىٰ دون الظمإ والجوع، فإن الجوع عري الباطل وذلّه، والعرى جوع الظاهر وذله. فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حرُّ الباطن، والضحى حر الظاهر، فقابل بينهما. وسئل المتنبي عن قول امريء القيس:

كأني لم أركـب جوادًا للذة ولم أتبـطّن كاعبًـا ذات خلخـال

ولم أسبـإ الـزق الـرويَّ ولم أقـل لخيلي كري كرة بعـد إجـفـال

فقيل له: إنه عيب عليه سبي الزق الروي بالكر وكان الأحسن مقابلته بتبطن الكاعب جمعًا بين اللذتين. وكذلك مقابلةُ ركوب الجواد للكر أحسن من مقابلته لتبـطن الكـاعب فقـال: بل الذي أتى به أحسن فإنه قابل مركوب الشجاعة بمركوب اللذة واللهو، فهذا مركب الطرب وهذا مركب الحرب والطلب، وكذلك قابل بين السباءين سبآء الزق وسبآء الرق. قلت: وأيضًا فإن الشارب يفتخر بالشجاعة كما قال حسان:

ونشربهـا فتـتركـنـا ملوكًـا وأسـدًا ماينهـنهـنـا الـلقـآء

وهذه جملة اعتراضية من ألطف الاعتراض[2].

وقيل الحسنُ ماستنطق أفواه الناظرين بالتسبيح والتهليل كما قيل:

ذي طلعـة سبحـان فالق صبحـه ومعـاطفٍ جلّت يمـين الغـارس

وقال علي بن الجهم:

طلعـت فقـال الـنـاظـرون إلى تصـويـرهـا مـاأعـظـم الله

ودنـت فلما سلَّمـت خجـلت والـتـف بالـتـفـاح خداهـا

---

(١) سورة طه: ١١٨ - ١١٩.

(٢) قال في هامش [مخطوطة] من: أي جملة ماذكرناه من أمثلة التقابل ليست من مقصود الكتاب لكنها لاتخلو من فائدة يحلو بها الخطاب ويستحسن عند أولي الألباب.

وكأن دعص الرمس أسفلها وكأن غصن البان أعلاها
حتى إذا ثملت بنشوتها قرأت كتاب الباه عيناه

وقال آخر:

ذو صورة بشرية قمرية تستنطق الأفواه بالتسبيح

وقال آخر:

وإذا بدت في بعض حاجتها تستنطق الأفواه بالتسبيح (كذا)

وقال بشَّار:

تُلْقىٰ بتسبيحة من حسن ماخلقت وتستفزّ حشا الرآئي بإرعاد

ولي من أبيات:

ياصورة البدر ولا الذي صوّر ليس البدر يحكيك
مُنى على العين ولاتبخلي بنظرةٍ فالعين تفديك
وإن تحرَّجت لهذا فكم قد سبّح الرحمن رآئيكِ

قال ابن شبرمة: كفاك من الحسن أنه مشتقٌ من الحسنة. وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: إذا تمّ بياض المرأة في حسن شعرها فقد تمَّ حسنها. وقالت عائشة رضي الله عنها: البياض شطر الحسن. وقال بعض السلف: جعل الله البهآء والهوج مع الطول، والدهاء والدمامة مع القصر، والخير فيما بين ذلك.

ومما يذمُ في النساء القصيرة الغليظة وهي التي عناها الشاعر بقوله:

وأنت التي حبّبت كل قصيرة إليَّ ولم تشعر بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار النا شرُّ النسآء البحاتر

والبحاتر هنَّ النسآء القصار الغلاظ. وبعضهم يبالغ في هذا حتى يفضل المهازيل على السمان.

أنشد الزمخشري:

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمنٍ لكنني أعشق السمر المهازيلا

إني امـــرؤٌ أركب المهـــر المضمـــر في يوم الـــرهـــان فدعني واركب الفيلا

وطائفة تفضل السمان وتقول: السمنُ نصفُ الحسن وهو يستر كل عيب في المرأة ويبدي محاسنها. وخيار الأمور أوسطها.

ومما يستحسن في المـرأة طول أربعـة وهنَّ: أطـرافها، وقامتها، وشعرها، وعنقها، وقصر أربعة: يدها، ورجلها، ولسانها، وعينها، فلا تبذل مافي بيت زوجهـا، ولاتخـرج من بيتهـا، ولاتستطيل بلسانها، ولاتطمع بعينها، وبياض أربعـة: لونها، وفـرقهـا، وثغـرهـا، وبياض عينهـا. وسـواد أربعة: أهدابها، وحاجبها، وعينها، وشعرها. وحمرةُ أربعة: لسانها، وخدها، وشفتها مع لعس، وإشراب بياضهـا بحمرة. ودقَّة أربعة: أنفها، وبنانها، وخصرها، وحاجبها. وغِلَظ أربعة: ساقها، ومعصمها، وعجيزتها، وذاك منها. وسعة أربعة، جبينها، ووجهها، وعينها، وصدرها. وضيق أربعة: فمها، ومنخرها، وخرق أذنها، وذاك منها. فهذه أحقُّ النسآء بقول كُثَيِّر:

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحـسـن عنـــد موفـق لقضى لها

وقال آخر:

ولـو أبصر الـوجـه منهـا وهـو منهزمٌ ليلاً وأعـــدآؤه من خلقـــه وقـــفـــا

وقال آخر:

ياطـيـب مرعـى مقـلـةٍ لم تخف بوجـنـتـيـهـا زجـر حُرَّاس

حلَت بوجـهٍ لم يغض ماؤه ولم تخضـه أعـين الـنـاس

وقال اخر:

فلم يزل خدُّهـا ركـنًـا ألـوذ به والخـالُ في خدهـا يغني عن الحجـر

وقول الآخر وأنشده المبرّد:

وأحسنُ من ربـع ومن وصف دمنـةٍ ومن جبـلي طي ومن وصفكم سلعا

تلاحظ عيني عاشــقــين كلاهمـا له مقـلةٌ في خد معشــوقــة ترعى

وأنشد ثعلب:

خزاعــة الأطــراف مرية الحــشــا   فزاريّة الــعــيــنـين طائــية الــفـم

ومـكيةٌ في الــطيب والعــطر دائــمًا   تبــدت لنــا بين الحــطيم وزمــزم

ثم قال: وصفها بها يستحسن من كل قبيلة.

وقال صالح بن حسان يومًا لأصحابه: هل تعرفون بيتًا من الغزل في امرأة خفرة؟ قلنا: نعم بيتُ لحاتم في زوجته ماويّة.

يضيء لها البيت الـظليل خصـاصه   إذا هي يومًــا حاولــت أن تبسَّــما

قال: ماصنعتم شيئًا قلنا: فبيتُ الأعشى:

كأن مشــيتــهــا من بيت جارتهــا   مرُّ الـسحــابــة لاريث ولاعجــل

قال: جعلها تدخل وتخرج قلنا: ياأبا محمد فأي بيت هو؟ قال: قول أبي قيس بن الأسلَت.

ويكــرمــهــا جاراتُهــا فيزرنَها   وتـعــتــل [عـن] إتـيانهن فتُـعْـذر

قلت: وأحسن من هذا كله ماقاله إبراهيم بن محمد الملقب بنفطويه رحمه الله:

وخــبرهــا الــواشــون أن خيالهــا   إذا نمت يغشىٰ مضجعي ووسادي

فخــفــوهــا فرطُ الحـيآء فأرسـلت   تعــيّرني غَضْــبــى بذول رفــادي

ومما يستحسن في المرأة رقةُ أديمها ونعومةُ ملمسه كما قال قيس بن ذريح:

تعلّق رُوحي رُوحهــا قبــل خلقنــا   ومن بعــد ماكنــا نطاقًـا وفي المهـد

فزاد كما زدنــا فأصــبــح نامــيًا   فليس وإن متــنــا بمنفصم العهــد

ولــكــنــه باق على كل حادثٍ   ومؤنسنــا في ظلمــة القــبر واللحـد

يكــاد مسيل المــاء يخدش جلدهــا   إذا اغتسلت بالمــاء من رقّــة الجلد

ولي من أبيات:

يُدمـي الحــريرُ أديمهــا من مسّــه   فأديمُــهــا منــه أرقُّ وأنــعــم

فصل

فيا أيها العاشق سمعُه قبل طرْفه فإن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا، وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب النصر. والمؤمنون يشتاقون [إلى» الجنة ومارأوها، ولو رأوها لكانوا أشد لها شوقًا، والصرورة[1] يكاد قلبُه يذوب شوقًا إلى رؤية البيت الحرام. فإن شاقتك هذه الصفات وأخذت بقلبك هذه المحاسن.

فاسمُ بعينيك إلى نسوة ... مُهورُهنّ العمل الصالح

وحدّث النفس بعشق الألىٰ ... في عشقهنَّ المتجرُ الرابح

واعمل على الوصل فقد أمكنت ... أسبابُه ووقتُها رائح

فصل

وقد وصف الله سبحانه [حور] الجنة بأحسن الصفات، وحلّاهنَّ بأحسن الحلىٰ، وشوق الخطاب إليهنَّ حتى كأنهم يرونهن رؤية العين. قال الطبراني: حدثنا بكر بن سهل الدمياطي [حدثنا] عمرو بن هشام البيروني، حدثنا سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن حسان، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت يارسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿**حورٌ عِينٌ**﴾[1] قال: حُورٌ بيضٌ، عِينٌ ضِخام العيون شعر الحورآء بمنزلة جناح النسر قلت: أخبرني عن قوله عزَّ وجل: ﴿**كأمثال اللؤلؤ المكنون**﴾[2] قال: صفآؤهنَّ صفآء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسَّه الأيدي قلت: يارسول الله أخبرني عن

---

(١) الصرورة: الذي لم يحج.

(٢، ٣) سورة الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣.

قوله: ﴿فيهنَّ خيراتٌ حِسَانٌ﴾[1] قال: خيراتُ الأخلاق حسانُ الوجوه قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كأَنَّهُنَّ بيضٌ مكنونٌ﴾[2] قال: رِقَّتُهُنَّ كرقة الجلد الذي رأيتِ في داخل البيضة ممَّا يلي القشر وهو الغِرقْيء قلت: يارسول الله أخبرني عن قوله عز وجلَّ: ﴿عُرُبًا أتْرَابًا﴾[3] قال: هن اللواتي قُبضن في دار الدُّنيـا عجائزَ رُمْصًا شُمْطًا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهنَّ عذارى عُرُبًا متعشقات متحجبات أترابًا على ميلادٍ واحد قلت: يارسول الله نسآءُ الدُّنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: بل نساءُ الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يارسول الله وبم ذلك؟ قال: بصلاتهن وصيامهنَّ وعبادتهنَّ الله ألبس الله وجوهن النور، وأجسادهنَّ الحرير، بيضُ الألوان، خضر الثياب، صفر الحلى مجاسرهُنَّ الدرّ، وأمشاطُهنَّ الذهب. يقُلْن: نحن الخالدات فلا نموت، نحن الناعمات فلا نبأس أبـدًا. نحن المقيمات فلا نضعن أبدًا، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا، طوبى لمن كنا له وكان لنا، قلت: يارسول الله المرأةُ منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعـة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها؟ قال: ياأم سلمة إنها تُخَيَّر فتختار أحسنهم خُلُقًا فتقول: أي ربِّ إن هذا كان أحسنهم معي خُلُقًا في دار الدُّنيا فزوّجنيه، ياأم سلمة ذهب حسنُ الخلق بخيري الدنيا والآخرة[4].

---

(١) سورة الرحمن: ٧٠.

(٢) سورة الصافات: ٤٩.

(٣) سورة الواقعة: ٥٧.

(٤) ذكره المؤلف رحمه الله تعالى في كتابه حادي الأرواح وعقب عليه بقوله: تفرد به سليمان بان أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير ولم أر للمتقدمين فيه كلامًا ثم ساق هذا الحديث من طريقه وقال: لايعرف إلا بهذا السند.

فصــل

وقد وصفهنَّ الله عز وجل بأنهنَّ كواعب، وهو جمع كاعب وهي المرأة التي قد تكعّب ثديها واستدار ولم يتدل إلى أسفل. وهذا من أحسن خلق النسآء، وهو ملازمٌ لسن الشباب. ووصفهنَّ بالحور وهو حسن ألوانهن وبياضُه قالت عائشة رضي الله عنها: البياضُ نصف الحسن وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا تمَّ بياضُ المرأة في حسن شعرها تم حسنها. والعرب تمدح المرأة بالبياض.

قال الشاعر:

بيضٌ أوانس ماهمــمــن بريبــة كظبــآء مكــة صيدهــن حرام
يحســبــن من لين الحــديث زوانـيا ويصــدهــن عن الخنــا الإســلام

والعين جمع عينآء وهي المرأة الواسعة العين مع شدة سوادها وصفآء بياضها وطول أهدابها وسوادها. ووصفهنَّ بأنهنَّ خيْراتٌ حسان وهو جمع خيرة وأصلها خيّرة بالتشـديد كطيّبة ثم خُفّف الحرف، وهي التي قد جمعت المحاسن ظاهرًا وبـاطنًا فكمُل خلقها وخُلُقها فهنَّ خيرات الأخلاق حسان الوجوه، ووصفهنَّ بالطهارة فقال: ﴿**ولهم فيها أزواج مطهرة**﴾[1] طهرن من الحيض والبول والنَّجو وكـل أذى يكـون في نساء [الدنيا]، وطهرت بوطنهن من الغيرة وأذى الأزواج وتجنيهنّ عليهم وإرادة غيرهم. ووصفهنَّ بأنهنَّ مقصورات في الخيام أي ممنوعاتُ من التـبرّج والتبذّل لغير أزواجهنَّ، بل قد قَصِرْنَ عَلَى أزواجهنَّ لايخرجن من منازلهم، وقصر ن عليهم فلا يردن سواهم. ووصفهن سبحانه بأنهنّ قاصِرَات الـطَّرْف، وهذه الصفة أكمل من الأولى، ولهذا كنَّ لأهل الجنتين الأولين[2]،

(١) سورة البقـرة الآية: ٢٥، وسورة النساء الآية ٥٧. بغير واو(٢) قال الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ولمن خاف مقـام ربـه جنتان﴾، فوصفهما وقال: ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾، ثم قال: ﴿ومن دونهما=

فالمرأة منهن قد قصرت طرفها على زوجها من صحبتها له ورضاها به، فلا يتجاوز طرفُها عنه إلى غيره كما قيل:

أذود سوام الـطرف عنـك ومـالـه على أحـدٍ إلا عليك طريق

وكذلك حال المقصورات أيضًا لكن أولئك مقصورات، وهؤلآء قاصرات. ووصفهن سبحـانـه بقوله: ﴿أبكارًا. عُرُبًا أترابًا﴾[1] وذلك لفضل وطء البكر وحلاوته ولذاذته على وطء الثيب. قالت عائشة رضي الله عنها: يارسول الله لو مررت بشجرة قد رُعي منها وشجرة لم يُرْع منها ففي أيها كنت ترتع بعيرك؟ فقال: في التي لم يرع منها تعني أنه لم يتزوّج بكرًا غيرها[2]. وصح أنه قال لجابر لما تزوج امرأة ثيّبًا: هلاَّ بكرًا تُلاعِبها وتُلَاعِبُك؟ فإن قيل: فهذه الصفة تزول بأول وطءٍ فتعود ثيبًا قيل: الجواب من وجهين: أحدُهما أن المقصود من وطء البكر أنها لم تذق أحـدا قبل وطئها فتزرع محبته في قلبها، وذلك أكمل لدوام العشرة فهذه بالنسبة إليها، وأما بالنسبة إلى الواطيء فإنه يرعىٰ روضةً أُنُفًا لم يرعها أحدٌ قبله، وقد اشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿لم يطمِثهن إنسٌ قبلهم ولاجَان﴾[3] ثم بعد هذا تستمر له لذة الوطء حال زوال البكارة، الثاني أنه قد روي أن أهل الجنة كلما وطيء احدهم امرأة عادت بكرا كما كانت فكلما اتاها وجدها بكرا[2]. وأما العُرُب فجمع عروب وهي التي جمعت إلى حلاوة الصورة حسنَ التأني والتبعُّل والتحبب إلى الزوج بدلها وحديثها وحلاوة منطقها وحسن حركتها، قال البخاري في صحيحه: وأما الأتراب فجمع ترب يقال: فلانٌ تربي إذا كنتما في سنّ واحدٍ

= جنتان﴾ فوصفهما وقال: ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ فهذا دليل المؤلف على أن صفة قاصرات الـطرف أكمل من صفة المقصورات في الخيام لأن الله سبحانه جعل القاصرات لأهل الجنتين الأوليين والمقصورات لأهل الجنتين اللتين من دونهما.

(١) سورة الواقعة الآيتان ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة الرحمن الآيتان ٥٦، ٧٤.

(٣) رواه الطبراني في معجمه وسيأتي بعدُ.

فهنَّ مستوياتٌ في سنّ الشباب لم يقصّر بهنَّ الصغر، ولم يُزْرِهنَّ الكبر، بل سنُّهنَّ سن الشباب. وشبهنَّ تعالى باللؤلؤ صفاء لونه وحسنَ بياضه ونعومةَ مَلْمسَه، وخذ من البيض المكنون وهو المصونُ الذي لم تنله الأيدي اعتدال بياضه وشوبه بما يُحسنه من قليل صُفرة بخلاف الأبيض الأمهق المتجاوزر في البياض، وخذ من الياقوت والمرجان حسن لونه في صفآئه وإشرابه بيسيرٍ من الحمرة.

فصـــل

فاسمـع الآن وصفَهنَّ عن الصادق المصدوق، فإن مالت النفسُ وحدثتك بالخطبة وإلا فالإيمان مدخول. فروى مسلم في صحيحه[1] من حديث أيوب، عن محمد بن سيرين إما تفاخروا وإما تذاكروا الرجال في الجنة أكثر أم النساء؟ فقال أبو هريرة رضي الله عنه: أولم يقل أبوالقاسم ﷺ: **«إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء إضاءة، لكل امريءٍ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة عزب»**.

وقال الطبراني في معجمه: حدثنا أحمد بن يحيى بن الحلواني والحسن بن علي القسوي قالا: حدثنا سعيد بن سليمان (حدثنا فضل ابن مرزوق رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«أول زمرة يدخلون الجنة كأن وجوههم صورة القمر ليلة البدر والزمرة الثانية على أحسن كوكب دري في السماء لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ سوقهما من وراء لحومهما وحللهما كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء»**. قال الحافظ أبوعبد الله المقدسي: هذا عندي على شرط الصحيح.

وفي الصحيحين[2] من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) (ج٤/٢١٧٨) رقم (٢٨٣٤)

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٠) ومسلم (٢٨٣٤).

قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة**[1] **ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية**».

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده[2]: حدثنا يونس بن محمد حدثنا الخزرج بن عثمان السعدي، حدثنا أبو أيوب مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيد سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا ومثلها معها ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها. ولنصيف امرأةٍ من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها قال قالت: يا أبا هريرة وما النصيف؟ قال: الخمار فإذا كان هذا قدر الخمار فما قدر لابسه؟**».

وقال ابن وهب: أنبأنا عمرو أن دراجًا أباالسمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل في الجنة لتأتيه امرأة تضرب على منكبه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب فتسلم عليه فيرد عليها السلام ويسألها من أنت فتقول أنا المزيد، وإنه ليكون عليها سبعون ثوبًا أدناها مثل النعمان من طوى فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب**». وبعض هذا الحديث في جامع الترمذي وهو على شرطه[3].

---

(١) الألوة: قال الأصمعي أراها فارسية عربت العود الهندي الذي يتبخر به.

(٢) (ج٢/ ٣١٥ و٤٨٢ و٤٨٣).

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/ ٧٦)، والترمذي في جامعه (٢٥٦٥) والبغوي في شرح السنة، ورواه أحمد (١٣/ ١٤٧) (٢/ ٣١٦). ورواية دراج عن أبي السمع فيها مقال.

وفي صحيح البخاري[1] من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده يعني سوطه خير من الدنيا وما فيها ولو طلعت امرأة من نساء الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا وأضاءت ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها**».

وفي المسند من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: للرجل من [أهل] الجنة زوجتان من الحور العين على كل واحدة سبعون حله يرى مخ ساقها من وراء الثياب.

وقال ابن وهب: حدثنا عمرو أن درجًا أبا السمع حدثه عن ابن الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة الـذي له ثمانـون ألف خادمًا واثنان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤٍ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء**»[3] رواه الترمذي.

وفي معجم الطبراني من حديث أبي أُمامة عن النبي ﷺ قال: «**خُلق الحور العين من الزعفران**»[4].

---

(١) ج٦/ في الجهاد باب الجور العين وصفتهنَّ ورواه أحمد ٣/١٤٧.

(٢) (٢/٣١٦).

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/٧٦) والترمذي في جامعه (٢٥٦٥) والبغوي في شرح السنة.

(٤) ذكره المصنف في حادي الأرواح بمسند الطبراني وقال: قال الطبراني: لايروي إلا بهذا الإسناد انفرد به علي بن الحسن بن هارون ثم ذكره من طرق أخرى موقوفة وقال: ولايصح رفع الحديث وحسبه أن يصل إلى ابن عباس.

فصــــل

فإن أردت سماع غنائهم فاسمع خبره الآن. ففي معجم الطبراني من حديث عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ إن أزواج أهل الجنة يغنين أزواجهن بأحسن أصوات ماسمعها أحد قط إن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان أزواج قوم كرام، ينظرون بقرة أعيان، وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا نتمنه، نحن الامنـات فلا تخفنه، نحن المقيعات فلا نضعه. وقد قيل في قوله تعالى: **﴿فهم في روضة يحبرون﴾**[1] إنه السماع الطيب ولا ريب أنه من الحبرة.

وقـال عبدالله بن محمد البغوي: حدثنا علي، أنبأنا زهير، عن أبي إسحاق، عن عاصم، عن علي رضي الله عنه قال: **﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا﴾**[2] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما فكأنما أُمروا به فشربوا منها فأذهب الله ما في بطونهم من قذى أو أذى أو بأس، ثم عمـدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم ولم تتغير أشعارهم بعدها أبدًا ولم تشعث رؤوسهم كأنما أدهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى الجنة فقالوا: **﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾**[1] **ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف أهل الدنيا بالحميم يقدم عليهم من غيبته فيقولون له: أبشر بما أعد الله تعالى لك من الكرامة، ثم ينطلق غلام، من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول: جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا قالت، أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته وهو بأثري فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفه بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر**

(١) سورة الروم: ١٥.

(٢) سورة الزمر: ٧٣.

(٣) سورة الزمر: ٧٣.

إلى [أساس] بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من [كل] لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله عزوجل قدره لألم أن يذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فإذا أزاوجة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ثم اتكأوا فقالوا ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾[1] ثم ينادي منادٍ يحيون فلا يموتون أبدًا، ويقيمون فلا يظعنون أبدًا، ويصحون فلا يمرضون أبدًا.

وفي سنن ابن ماجه[2] عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام في أبد في دار سليمة وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية قالوا: نعم يارسول الله نحن المشمرون لها قال: قولوا إن شاء الله فقال القوم: إن شاء الله [تعالى]».

فصــــل

فهذا وصفهن وحسنهن فاسمع الآن لذة وصالهن وشأنه ففي مسند أبي يعلى الموصلي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فذكر حديثا طويلاً وفيه: «فأقول يارب وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة فيقول الله تعالى [قد] شفعتك وأذنت لهم في دخول الجنة» وكان رسول الله ﷺ يقول: «والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم فيدخل رجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة مما ينشيء الله وثنتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله بعبادتهما الله في الدنيا يدخل على الأولى منهما في غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليه

---

(١) سورة الأعراف: ٤٣.

(٢) رقم (٤٣٣٢) وابن حبان (٢٦٢٠) والبغوي في شرح السنة ولابأس بإسناده.

سبعون زوجًا من سندس وإستبرق وإنه ليضع يده بين كتفيها ثم ينظر إلى يده من صدرها ومن ورآء ثيابها وجلدها ولحمها وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلق في قصبة الياقوت كبده لها مرآة يعني وكبدها له مرآة فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء فبينا هو كذلك إذ نودي إنا قد عرفنا أنك لا تَمِل ولا تُمَل إلا أنه لا مني ولا منية إلا أن يكون لك أزواج غيرها فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما جاء واحدة قالت: والله ما في الجنة شيء أحسن منك وما في الجنة شيء أحب إليَّ منك». وهذا قطعة من حديث الصور الطويل الذي رواه إسماعيل بن رافع[1].

وفي صحيح مسلم[2] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرىٰ بعضهم بعضًا»** رواه البخاري وقال: ثلاثون ميلاً.

وفي جامع الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يُعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من النساء قلت: يارسول الله ويطيق ذلك؟ قال: يعطى قوة مائة»** قال: هذا حديث صحيح[3] غريب.

(١) قال المؤلف في كتابه حادي الأرواح وذكر هذا الحديث: تفرد به إسماعيل ابن رافع وقد روى له الترمذي وابن ماجة وضعفه أحمد ويحيى وجماعة وقال الدارقطني وغيره: متروك الحديث وقال ابن عدي: عامة أحاديثه فيها نظر وقال الترمذي: ضعفه بعض أهل العلم وسمعت محمدًا يعني البخاري يقول: هو ثقة مقارب الحديث وقال لي شيخنا أبو الحجاج الحافظ: هذا الحديث مجموع من عدة أحاديث ساقه إسماعيل أو غيره هذه السياقة وماتضمنه معروف في الأحاديث والله أعلم. وذكر قطعة منه في موضع آخر من الكتاب وعقب عليهابهذا وزاد قوله قلت: ولكن إذا روى مثل هذا مايخالف الأحاديث الصحيحة لم يلتفت إلى روايته، وأيضًا فالرجل الذي روى عنه القرظي لايدري من هو.

(٢) (٤/٢١٨٢) (٢٨٣٨) والبخاري ٨، ١٣ في التوحيد والتفسير وأحمد في المسند (٤/٤٠٠).

(٣) وهو كما قال رحمه الله ورزقنا علمه ورواه أيضًا ابن حبان

وفي معجم الطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يارسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ فقال: «**إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء**» وفي لفظ: قلنا يارسول الله نفضي إلى نسائنا في الجنة؟ فقال: «**إي والذي نفسي بيده إن الرجل [ليفضي] في الغداة الواحدة إلى مائة عذراء**». قال الحافظ أبوعبدالله المقدسي: ورجال هذا الحديث عندي على شرط الصحيح.

وفي حديث لقيط العقيلي الطويل [الذي] رواه الطبراني وعبدالله بن أحمد في السنة[1] وغيرهما أنه قال: [قلت] يارسول الله أولنا فيها أزواج مصلحات قال: «**الصالحات للصالحين تلذوهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذذنكم غير أن لا توالد**».

وذكر ابن وهب عن عمرو بن الحارث، عن [دارج]، عن عبدالرحمن بن حجيرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أنطأ في الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم والذي نفسي بيده دحمًا، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرًا[2] قال الحافظ أبوعبدالله: [دارج] اسمه عبدالرحمن بن سمعان المصري، وثقه يحيى ابن معين: وأخرج عنه أبوحاتم بن حبان في صحيحه وكان بعض ينكر بعض حديثه والله أعلم.

وفي معجم الطبراني من حديث أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارًا وفيه أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ سئل أيجامع أهل الجنة؟ قال: دحمًا دحمًا ولكن لا مني ولا منية**».

---

(١) ج٢/٤٨٨ وهو جزء من حديث طويل في صفحتين ورواه أحمد (٤/١٣) وفيه ضعف.

(٢) رواية دراج عن أبي السمح فيها ضعف.

قصيدة [1]

ياخاطب الحور الحسان وطالبًا … لوصالهن بجنة الحيوان
لو كنت تدري من خطبت ومن طلبـ … ـت بذلت ما تحوي من الأثمان
أوكنت تعرف أين مسكنها جعلـ … ـت السعي منك لها على الأجفان
أسرع وحث السير جهدك إنما … مسراك هذا ساعة لزمان
فاعشق وحدث بالوصال النفس وابـ … ـذل مهرها مادم ذا إمكان
واجعل صيامك دون لقياها ويو … م الوصل يوم الفطر من رمضان
واجعل نعوت جمالها الحادي وسر … نحو الحبيب ولست بالمتواني
واسمع إذن أوصافها ووصالها … واجعل حديثك ربة الإحسان
يامن يطوف بكعبة الحسن التي … حفت بذاك الحجر والأركان
ويظل يسعى دائمًا حول الصفا … ومحسر مسعاه كل أوان
ويروم قربان الوصال على منى … والخيف يحجبه عن القربان
فلذا تراه محرمًا أبدًا ومو … ضع حلة منه فليس بدان
يبغي التمتع مفردًا عن حبه … متجردًا يبغي شفيع قران
ويظل بالجمرات يرمي قلبه … هذي مناسكه بكل زمان
والناس قد قضوا مناسكهم وقد … حثوا ركائبهم إلى الأوطان
وخدت بهم همم لهم وعزائم … نحو المنازل ربة الإحسان
رفعت لهم في السير أعلام الوصا … ل فشمروا ياخيبة الكسلان
ورأوا على بعدٍ خيامًا مشرفا … تٍ مشرقاتِ النور والبرهان
فتيمموا تلك الخيام فآنسوا … فيهن أقمارًا بلا نقصان
من قاصرات الطرف لا تبغي سوى … محبوبها من سائر الشبان

(١) هي قطعة من قصيدة للمؤلف في السنة سماها الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

قصرت عليه طرفها من حسنه ... والطرف منه مطلق بأمان
ويحار منه الطرف في الحسن الذي ... قد أُعطيت فالطرف كالحيران
ويقول لما أن يشاهد حسنها ... سبحان معطي الحسن والإحسان
والطرف يشرب من كؤوس جمالها ... فتراه مثل الشارب النشوان
كملت خلائقها وأكمل حسنها ... كالبدر ليل الست بعد ثمان
والشمس تجري في محاسن وجهها ... والليل تحت ذوائب الأغصان
فيظل يعجب وهو موضع ذاك من ... ليل وشمس كيف يجتمعان
ويقول سبحان الذي ذا صنعه ... سبحان متقن صنعة الإنسان
لا الليل يدرك شمسها فتغيب عنـ ... ـد مجيئه حتى الصباح الثاني
والشمس لا تأتي بطرد الليل بل ... يتصاحبان كلاهما أخوان
وكلاهما مرآة صاحبه إذا ... ماشاء يبصر وجهه يريان
فيرى محاسن وجهه في وجهها ... وترى محاسنها به بعيان
حمر الخدود ثغورهن لآلىء ... سود العيون فواتر الأجفان
والبرق يبدو حين يبسم ثغرها ... فيضيء سقف القصر بالجدران
ريانة الأعطاف من مآء الشبا ... ب فغصنها بالماء ذو جريان
لما جرى مآء النعيم بغصنها ... حمل الثمار كثيرة الألوان
فالورد والتفاح والرمان في ... غصنٍ تعالى غارس البستان
والقد منها كالقضيب اللدَّن في ... حسن القوام كأوسط القضبان
في مغرس كالعاج تحسب أنه ... عالي النقا أو واحد الكثبان
لا الظهر يلحقه وليس ثديها ... بلواحقٍ للبطن أو بدوان
لكنهن كواعبٌ ونواهدٌ ... فثديهنَّ كأحسن الرُّمان
والجيد ذو طولٍ وحسنٍ في بياضٍ ... واعتدالٍ ليس ذا نكران
يشك الحليُّ بعاده فله مدى الـ ... أيام وَسواسٌ من الهجران

والمـعـصـمان فإن تشـأْ شبـهـهـا ... بسـبـيكـتـين عليهـما كفـان

كالـزبـد لينًـا في نعـومـة ملمس ... أصـداف در دورت بوزان

والـصـدر متـسـعٌ على بطنٍ لها ... والخصرُ منهـا مغـرمٌ بثـمان

وعـليه أحـسـن سُرَّةٍ هي زينـةٌ ... للبـطن قد غارت من الأعـكـان

حُقٌّ من العـاج استـدار وحشـوهُ ... حبّـات مسـكٍ جلَّ ذو الإتـقـان

وإذا نزلـت رأيت أمـرًا هائـلاً ... ما للصـفـات عليه من سلطان

لا الحـيضُ يغـشـاهُ ولا بولٌ ولا ... شيءٌ من الآفـات في الـنـسـوان

فخـذان قد حُفَّـا به حرَسًـا له ... فجـنـابـه في عزَّةٍ وصِـيان

قامـا بخـدمتـه هو السلطان بيـ ... ـنهـما وحـقٌّ طاعـةُ الـسـلطان

وهـو المُطاعُ إذا هو استدعى الحبيـ ... ـب أتـاه طوّعًـا وهـو غيرُ جبان

وجمـاعُهـا فهـو الشفـآء لصبهـا ... فالـصـبُّ منـه ليس بالضجْران

وإذا أتـاهـا عادت الحسنـآء بكـ ... ـرًا مثل ماكـانتمـدى الأزمـان

وهـو الـشـهي ألـذُّ شيء هكـذا ... قال الـرسـولُ لمن له أُذنـان

يارب غفـرًا قد طغـت أقـلامـنـا ... ياربّ معـذرةً من الـطغـيان

أقـدامُـهـا من فضـةٍ قد رُكّبـت ... من فوقـهـا ساقـان ملتـفّـان

والسـاقُ مثـلُ العـاج ملمـومٌ به ... مُخُّ الـعـظام تنـالـه العـينـان

والـرّيحُ مسـكٌ والجسـومُ نواعمٌ ... والـلونُ كالـياقـوت والمـرجـان

وكـلامُهـا يسبي العقـول بنغمةٍ ... زادت على الأوتـار والـعـيدان

وهي العُـروب بشكلهـا وبـدلهـا ... وتحـبـبٍ للزوج كلّ أوان

أتـرابُ سنٍّ واحـدٍ متـماثـلٍ ... سنُّ الـشـبـاب لأجمـل الـشُّبَّـان

بكـرٌ فلم يأخـذ بكـارتهـا سوى الـ ... ـمحبـوب من إنسٍ ولا من جان

يُعطي المجمع قوة المائة التي اجـ ... ـتمعت لأقـوى واحـد الإنسـان

ولـقـد أتـانـا أنـه يغـشى بيوم ... م ٍ واحـدٍ مائـةً من الـنِّـسـوان

ورجـالـه شرط الصحيح رووالهم ... فيه وذا في معـجـم الـطبراني
وبـذاك فُسر شغـلهـم في سورةٍ ... من بعـد فاطـر[1] ياأخـا العـرفـان
هذا دلـيل أن قدر نسـآئـهـم ... متـفـاوتٌ بتـفـاوُتِ الإيمان
وبـه يزول توهُّـم الإشـكـال عن ... تلك النـصـوص بمنـة الـرحمن
في بعـضهـا مائـةٌ أتـى وأتـى بها ... سبـعـون أيضًـا ثم جا تنـان
فتفـاوُتُ الـزوجات مثلُ تفاوت الـ ... ـدرجـات فالأمـران مختـلفـان
وبقـوةِ المـائـة التي حصلت له ... أفـضـى إلى مائـةٍ بلا خَوَران
وأعـفُّـهـم في هذه الـدنـيا هو الـ ... أقـوى هنـاك لزهـده في الـفـاني
فاجمـع قواك لما هنـاك وغُضَّ منـ ... ـك الطرف واصبر ساعةً لزمـان
ما هاهـنـا والله مايسـوى قُلا ... مةَ ظفـر واحـدةً من الـنِّسـوان
ونـصيفـهـا خيرٌ من الـدُّنيا ومـا ... فيهـا إذا كانـت من الأثـمان
لاتُـؤثـر الأدنى على الأعـلى فإن ... تفـعـل رجـعـت بذلـةٍ وهـوان
وإذا بدت في حُلَّةٍ من لبـسـهـا ... وتمـايلت كتـمايل الـنـشـوان
تهتـزّ كالـغـصـن الـرطـيب وحملُه ... وردٌ وتـفـاحٌ عَلَى رمـان
وتـبـخـترت في مشـيهـا ويحق ذا ... ك لمثـلهـا في جنـة الـرضـوان
ووصـائفٌ من خلفهـا وأمـامهـا ... وعـلى شمـائـلهـا وعـن أيمان
كالـبـدر ليلة تِمِّه قد حُفَّ في ... غَسـقِ الـدُّجىٰ بكـواكب الميزان
فلسـانُـه وفـؤادُه والـطرفُ في ... دهش وإعـجـاب وفي سبـحـان
تستـنـطق الأفـواه بالـتسـبيح إذ ... تبـدو فسبحـان العـظيم الشـان
والقلب قبـل زفـافهـا في عُرسـه ... والعـرس إثـرَ العـرس متصـلان

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة يس: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ فقد فسر كثير من السلف [الشغل في هذه الآية بافتضاض الأبكار].

حتـى إذا ماواجـهتـه تقـابـلا ... أرأيت إذ يتـقـابـلُ الـقـمـران

فسـل المتيَّم هل يَحلّ الصـبرُ عن ... ضمٍّ وتـقـبـيلٍ وعـن فَلَتـان

وسـل المُـتَـيَّم أين خلف صبره ... في أيِّ وادٍ أم بأي مكـان

وسـل المتيم كيف حالتـه وقـد ... ملئـت له الأذنـان والـعـينـان

من منـطقٍ رقَّـت حواشـيه ووجـ ... ـهٍ كم به للشـمس من جريان

وسـل المـتـيم كيف عيشتُـه إذًا ... وهمـا عَلَى فرشـيهـما خلوان

يتـسـاقـطان لآلئـا منـثـورةً ... من بين منـظومٍ كنـظم جُمان

وسئـل المتيم كيف مجلسُـه مع الـ ... ـمـحبـوب في روح وفي ريحـان

وتـدور كاسـات الـرحيق عليهـما ... بأكـف أقـمارٍ من الـولـدان

يتـنـازعـان الـكـأس هذا مرَّةً ... والخـود أخـرى ثم يتـكئـان

فيضـمـهـا وتـضـمّـه أرأيت معـ ... ـشـوقـين بعـد البعـد يلتقـاين

غاب الرَّقيـبُ وغـاب كلُّ منكـدٍ ... وهمـا بثـوب الـوصـل مشتمـلان

أتـراهمـا ضَجِـرَيْن من ذا العيش لا ... وحـياةِ ربـك ماهمـا ضِجـران

ياعـاشـقًـا هانـت عليه نفسُـه ... إذ باعــهـا غَنـبًـا بكـل هوان

أتـرى يليق بعـاقـلٍ بيعُ الـذي ... يبقى - وهـذا وصفـه - بالفـاني(*)

(*) لقد أنكر بعض الناس أن يكون نعيم الجنة ماديًا يباشره الخلق بأجسامهم ويرونه بأبصارهم وهم يدعون أن النعيم فيالآخرةروحي محض ليس للأجسام علاقة به. ولايخفى مافي هذا الرأي من الزيغ والضلالة، وأي زيغ أشدّ من رد ماجاءت به الآيات البينات والأحاديث الصحيحة الثابتة؟

إن أحوال البرزخ والقيامة ومابعدهما من الأمور المغيبة التي لايمكن أن يكون المرجع فيها إلى الرأي والاجتهاد، بل لابد من المصير فيها إلى ماجاء عن الله ورسوله ﷺ. إذن ليس لنا من محيد على أن نعتقد اعتقادًا جازمًا لاتردد فيه أن الحال في الآخرة على ماوصف في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وهو ماعليه عامة السلف والخلف.

على أن الجنـة ليست كما يفهمها آخرون مقصورة على التمتع بالشهوات من النساء والطعام والشراب ونحوها وإنما هنالك أمور هي أسمى من ذلك وأعلى، منها اجتماع أهل الجنة بعضهم

= ببعض وتـذاكرهم ماكان بينهم في الدنيا ومنها وهو أفضلها وأعظمها على الإطلاق رؤية الله سبحانه وتعالى عيانًا بغير حجاب وسماع كلامه بلا وسطة ومحاضرته العباد وتذكيره عزّ وجل إياهم بما أتوا في الدنيا من غدرات وغير ذلك مما هو ثابت لايمتري فيه إلا من هم في ريبهم يترددون .

وبعـد فلا أدري ماهو السبب الحامل على إنكار كون نعيم الجنة مما يشترك في الإحساس به الأجسـام والأرواح، مع أن الناس جميعًا إنما يسعون في الدنيا لتحصيل اللذة والنعيم، وهما لديهم الغاية القصوى من الحياة المضوبة بالآلام والأسقام والفقر وخوف الانقطا، ومامنا من أحد إلا وهو يتوخى بعمله أيَّ عمل كان مايتوخاه العامل من الأجر، حتى أولئك الذين يدَّعون أنهم إنـما يعملون مايعملون قياسًـا بالواجب وإجابَة لداعي الضمير فإن قصاراهم منه الذة وموضعها النفوس والأجسام .

وإن تعجب فعجب شأن أولئك الذين يستنكرون عيش الآخرة لما فيه من الإقبال على النعيم الخالص، ويعدّون القلبِ في افيآئه وامتاعَ النفس بلذاته من الأمور التي يحسن بالعاقل أن يربأ بنفسه عن الرضا بها والركون إليها، وإنما هي شيمة العاطلين أولى النفوس الشهوانية والهمم الـدنية، يقـولـون ذلـك وهم يركبـون رؤوسهم في اتبـاع الشهوات الموبقة بين سمع الخلق وبصرهم، وينعون على أهل الصلاح أنهم عن صراطهم ناكبون، وأنهم عن صفو هذا العيش ونعمته غافلون . ولقد قال قائلهم وكان في تيه غيه وهواه سادرا :

ومن أجــــل كـــــرهي للمخـــــانيـث
أنــكـــرت يدي أن تحلي في الجـنـــان أســاورا

ألا فليعلم هؤلاء أن للمتقين مفازًا وأن لهم في الجنة ماتشتهي أنفسهم ولهم فيها مايدعون نزلاً من غفور رحيم وفيها ماتشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون .

تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار.

المراجـــع

* القرآن الكريم - تنزيل من رب العالمين
* كتب اللغة.
* لسان العرب لابن منظور. دار صادر.
* مختار الصحاح للفخر الرازي - المكتبة الأموية - بيروت.

كتب الحديث:

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ابن حجر - الطبعة السلفية.
* صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. توزيع دار الافتاء.
* سنن الترمذي تحقيق أحمد شاكر.
* سنن أبو داود - دار الحديث - محمد على السيد.
* سنن ابن ماجة بتحقيق الأعظمي - الرياض.
* سنن النسائي - دار القلم.
* رياض الصالحين للنووي. دار المأمون للتراث.
* شرح السنة للإمام البغوي - المكتب الإسلامي.
* مشكاة المصابيح - للتبريزي - بتحقيق الألباني - المكتب الإسلامي.
* جامع الأصول لابن الأثير - تحقيق الأرناؤوط.
* صحيح الجامع الصغير - للألباني - المكتب الإسلامي.
* ضعيف الجامع الصغير - للألباني.
* السلسلة الصحيحة - للألباني - المكتب الإسلامي.
* السلسلة الضعيفة - للألباني - المكتب الإسلامي.
* مسند أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي - ط. البابي.
* مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر - دار المعارف - مصر.

* مصنف ابن أبي شيبة ـ الهند.
* تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ـ الهند.
* ماهية الجمال والفن ـ عبدالله عووضة ـ الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٨م.
* دراسات نفسية ـ التذاوق الفني ـ شاكر سليمان ـ القاهرة.
* الظاهرة الجمالية في الإسلام ـ صالح الشامي ـ المكتب الإسلامي.
* سطوع البدر بفضائل ليلة القدر ـ إبراهيم الحازمي ـ توزيع الجريسي ـ الرياض.
* فصول في علم الجمال ـ عبدالرؤوف برجاوي ـ بيروت.
* الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي ـ عماد الدين خليل ـ مؤسسة الرسالة ـ فسلفة الجمال في الفكر المعاصر ـ محمد زكي ـ بيروت.
* فلسفة الجمال في الفكر المعاصر ـ محمد زكي ـ بيروت.
* مشارق أنوار القلوب وصفائي أسرار الغيوب ـ ابن الدباغ ـ دار صادر.
* مشارق أنوار القلوب وصفائي أسرار الغيوب ـ ابن الدباغ ـ دار صادر بيروت.
* الأسس الجالية في النقد العربي ـ عز الدين إسماعيل ـ دار الفكر
* الدوريات والحوليات.
* فلسفة الجمال ـ مجلة المقتطف ـ مصر ـ عام ١٣٩٩هـ.
* لماذا يعشق الإنسان الجمال ـ نبيل راغب ـ مجلة الفيصل ـ عام ١٤٠٣.
* الفرق بين جمال الطبيعة وجمال الفن ـ المجلة العربية ـ عام ١٤٠٣هـ.
* مدارس الجمال عند العربيين ـ منير العجلاني ـ المجلة العربية ـ ١٤٠٦هـ.
* الإحساس بالجمال ـ راضي حكيم ـ المنهل ـ ١٤٠٤هـ.
* هكذا علمتني الحياة ـ مصطفى السباعي ـ المكتب الإسلامي.
* الأخلاق والسير في مداواة النفوس ـ ابن حزم ـ دار الآفاق.

* البداية والنهاية لابن كثير ـ دار المعارف .
* تفسير ابن كثير.
* فتح القدير ـ للشوكاني .
* أضواء البيان ـ الشنقيطي ـ توزيع دار الإفتاء السعودية .
* عمل اليوم والليل ـ النسائي ـ تحقيق فاروق حمادة ـ المغرب .

الفهـــرس

فهرس كتاب الجمال لابن تيمية

الفهرس الموضوعي لكتاب ابن القيم

فهرس الفوائد والمطالب